

مائة عام على استشهاد "نسر الثورة" – روزا لوكسمبورغ – الحلقة الثانية

الدكتور صالح ياسر

الطريق الى النظرية / أوبواكير النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ

لابد من الإشارة، في البداية، الى أن روزا لوكسمبورغ جسدت أفكارها الاقتصادية في أربعة أعمال أساسية: " تطور الصناعة في المملكة البولندية " ، " إصلاح إجتماعي أم ثورة؟ " ، " مدخل الى الإقتصاد السياسي " ، " تراكم رأس المال " (مع النقد المضاد)، هذا إضافة الى أعمال أخرى أقل أهمية. ما يهمنا في هذه الحلقة هو تقديم عرض مكثف للاعمال الاقتصادية الأساسية التي سبقت ظهور عمل روزا لوكسمبورغ الأهم ونعني به " تراكم رأس المال " .

المبحث الأول:

الأعمال الاقتصادية المبكرة: مفهوم إستراتيجيان في الحركة العمالية البولندية

كان " تطور الصناعة في المملكة البولندية " أول عمل إقتصادي لروزا لوكسمبورغ، وهو بمثابة أطروحة علمية دافعت عنها في زيورخ (سويسرا) عام 1897 وحصلت في ضوئها على درجة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، وتم نشرها في لايبزيك (المانيا) بعد عام من مناقشتها. وكما هو معلوم فإن إنبثاق الأطروحة ومضمونها كانا مرتبطين بشكل وثيق الصلة بالوضع الذي كان سائداً في الحركة العمالية البولندية. في حين كان عملها الآخر الموسوم : " إصلاح إجتماعي أم ثورة؟ " مرتبطاً بالوضع الذي كان سائداً في الحركة العمالية الألمانية. ولاشك أن التحاليل الاقتصادية الواردة في هذا الكتاب، وكذلك في " الميليشيا والعسكرة " ، تحتل مكاناً مهماً، وتتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة لتشكيل نظرية تراكم رأس المال التي صاغتها لوكسمبورغ.

أبرز الإشكاليات التي تضمنها كتاب " تطور الصناعة في المملكة البولندية "

حاول قادة البروليتاريا الكبيرة في بولندا تكييف العلم الثوري، الطبقي – الأممي، للظروف البولندية، وإعتبروا بأنه من الضروري عدم التخلي عن تراث الإنتفاضة. وقد شخصوا، حينذاك، بأن مهمة الطبقة العاملة البولندية لا تتعلق بإعادة بناء إستقلال بولندا، بل بتحقيق الثورة الإجتماعية، وإقامة مجتمع بدون إستغلال ولا عسف. ومن أجل تقريب هذا الهدف النهائي، كان يتعين على البروليتاريا البولندية في تلك الفترة، بإعتقادهم، أن توفر كل الشروط الممكنة للنضال من أجل تحقيق الأهداف القريبة. أما في روسيا القيصرية فقد كان الترسيمة مختلفة: النضال من أجل الإطاحة بالقيصر.

وبحسب هذه الترسيمة من التفكير، فإن الأهداف العرضية (القومية) مكّنت من حجب الهدف الطبقي والإبتعاد عن الثورة الإشتراكية، وعرقلت في الوقت نفسه تصفية الإضطهاد القومي.

وإرتباطاً بتفكك **النارودنيا فوليا** والأمية الأولى، حيث **إنهارت** بإنعطاف إجتماعي في روسيا، كان على الحركة العمالية الوليدة في المملكة البولندية أن **تكيف** المفهوم الإستراتيجي للظروف المتغيرة. وفي هذه الفترة **حاول** الليبراليون البرجوازيون **التسرب** الى الحركة العمالية، كما إنظم الإشتراكيون القوميون الذين كانوا ينتمون الى ما يسمى بـ **Zet**، الى **واحدة** من ثلاث منظمات ناشطة في المملكة البولندية، " الوحدة العلمية " التي قبلت برنامجهم.

ومن جهة أخرى، **صاغت** مجموعة من المهاجرين الإشتراكيين البولون موقفاً سياسياً جديداً، مروجين في أوساط العمال، داخل البلاد، لنشرة محلية أطلقوا عليها " **قبيل الفجر** " **Przedswit**. وكانت **نقطة إنطلاق** هذه المجموعة تتمثل **بالقناعة** بأن روسيا، المتخلفة إقتصادياً وإجتماعياً، ستظل لفترة مديدة بلداً **رجعياً**، وأن الشعب البولندي لا يمكنه الإنتظار طويلاً من أجل تحريره. وبحسب هؤلاء، فإن **مهمة** إعادة بناء الدولة البولندية يجب أن **تقوم** بها **البروليتاريا**. وطبقاً لهذا الفهم فإن **الهدف** الطبقي للبروليتاريا قد **ترجع** الى الوراء، ذلك لأنه يمكن، في ذلك الوقت، **تصور** تحقيق الوحدة القومية مع البرجوازية الصغيرة والبرجوازية أو جزء منها. فقد كان **التحالف** مع هذه الطبقات، وليس مع البروليتاريا الروسية، ذا أهمية **مقررة** عند هؤلاء، كما أن الدعم القادم من جهة **أعداء** روسيا حينذاك، أي البلدان الرأسمالية، توجب أن **يحتل** أهمية راهنية أكثر من دعم الأممية العمالية.

أما على صعيد المملكة البولندية فقد تم **التوصل**، في هذه الفترة، الى **توحيد** منطمتين بروليتاريتين - إتحاد العمال البولنديين والبروليتاريا الثانية- في حزب إشتراكي وأمي هو **الحزب الإشتراكي البولندي PPS**. وقد **رفض** الكونفرنس الوطني لنشطاء الحزب برنامجه. ومن أجل التمييز عن المفهوم المصاغ في برنامج الحزب تم إبدال إسمه الى **الإشتراكية الديمقراطية البولندية SPD**. وفي **صراعهم** مع الحزب الإشتراكي البولندي **طُور** الإشتراكيون الديمقراطيون البولون **المفهوم الإستراتيجي** للبروليتاريا بما يتناسب والظروف الجديدة. وبهذه الطريقة يمكن ملاحظة **تصادم** مفهومين إستراتيجيين متعارضين داخل أوساط الحركة العمالية البولندية. وكان كل حزب منهما **يحاول** أن **يبرز** موقفه، مؤكداً على أن هذا الموقف **يتطابق** مع أفكار ماركس وأنجلس، ومع مصالح الطبقة العاملة البولندية والعالمية !.

ونظراً لأن **العامل الإقتصادي** كان يحتل، آنذاك، أهمية كبيرة في أوساط الماركسين، فقد **إنتشرت** في المملكة البولندية، وتحديدًا في سبعينات القرن التاسع عشر، تلك **الفكرة** المروجة للحديث عن **المنافع** الإقتصادية الكبيرة التي يمكن أن **تنجم** عن الإتحاد الإجباري مع روسيا. وهذه الفكرة، التي **تبرر** إستناداً الى **التطور الصناعي الرأسمالي**، كان يمكن **العثور** عليها في مجلة " **البروليتاريا العظمى** "، حيث أُشير هناك الى أن المنافع الكبيرة الناجمة عن الدخول الى الأسواق الغربية **المتناثرة** تتوائم **ومصالح** برجوازية المملكة البولندية في ظل إنعدام الحريات السياسية فيها آنذاك. وفي الواقع فإن هذه الفكرة تم **إعتمادها** من طرف **روزا لوكسمبورغ** ورفاقها. فقد **توصلت** الى **إستنتاج** مفاده أن **تطور** بولندا لم يتم بسبب صناعة المانيفاكوتورا، وان هذه الصناعة قد **نشأت** في سنوات **1820-1830** بمبادرة وبفضل **الجهود القوية** للحكومة البولندية الناشطة بالتفاهم مع عدو القضية القومية البولندية، **الحكومة الروسية**. وكان وجود هذه الصناعة **وتطورها**، بحسب **روزا لوكسمبورغ**، مستنداً **ومعتمداً** على **السوق الروسية**. وكانت **السوق**، سواء المحلية - سوق المملكة البولندية -، أم **السوق الخارجية** - السوق الشرقية -، تمثل بالنسبة لها **عاملاً** **مقررًا** للتصنيع الرأسمالي للملكة. كما أن **التخلي** عن الأسواق الشرقية كان **سيوذي**، بإعتقادها، الى **انهيار** **حاد** لوتيرة النمو، وبالتالي لن تتمكن الصناعة البولندية من منافسة **الصناعات** الأوروبية الغربية القوية، لا في **السوق الدولية**، ولا حتى في **السوق المحلية الضيقة**.

في ظل هذه **المعارك الفكرية** والسياسية العملية يمكن رؤية **عمل** **روزا لوكسمبورغ**: " **تطور الصناعة في المملكة البولندية** ". يعد هذا **العمل** **أول عمل نظري** كبير لهذه الكاتبة، كما أنه على العموم يعد أول **عمل نظري** وضع على **عاتقة مهمة** اضاءة **الامواضع** الاقتصادية للرأسمالية في بلد محدد، باستخدام

المادية التاريخية وأدواتها التحليلية. غير أن روزا لوكسمبورغ لم تحصر نفسها باستعراض وفائها لمنهج ماركس العلمي، بل أكدت على أن القضية البولندية "يمكن دراستها من وجهات نظر مختلفة، ولكن دراسة تطور العلاقات الاقتصادية هي المفتاح لفك رموز العلاقات السياسية"¹.

يتألف هذا العمل من جزئين أساسيين، إضافة إلى مقدمة وخاتمة قصيرة. الجزء الأول كرسته روزا لوكسمبورغ لدراسة تطور الصناعة البولندية، في حين كُرس القسم الثاني للسياسة الاقتصادية لروسيا القيصرية في المملكة البولندية.

في الجزء الأول عرضت الكاتبة "التناقض الأكثر بروزاً" بين النظام السياسي في بولندا المجزأة وبين مستوى العلاقات الاقتصادية السائدة. شكل مالكو الأرض الكبار الطبقة المسيطرة في الاقتصاد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث يعد استغلال الفلاحين، المعلم المميز لهذه المرحلة، ولهذا أصبح الاقتصاد الزراعي متخلفاً وغير ريعي وبدون فعالية. وفي مسعى البحث عن مصادر دخول جديدة لقطاعات واسعة من الأرستقراطية، واستناداً إلى تجربة الغرب، تم إقامة المانيفاكوتورا. وقبل التقسيم لم تكن هناك في بولندا طبقة رأسمالية بل ظهرت لاحقاً، وكانت تتألف جزئياً من عناصر محلية نافذة إضافة إلى صناعيين قادمين من الخارج. ومن جهة أخرى كانت الحرف والتجارة في طريقهما للانهايار.

أعارت لوكسمبورغ انتباهاً خاصاً لدور حكومة المملكة البولندية في إقامة الصناعات المحلية، أي بناء الرأسمالية الصناعية "من فوق"، ويعد هذا انجازاً هاماً للكاتبة. واستناداً إلى النظرية الماركسية بشأن التراكم الأولي لرأس المال، عرضت روزا لوكسمبورغ ما جرى في بولندا من عمليات ساهمت في تحقيق التراكم الأولي الذي خلق الشروط لإنبثاق الرأسمالية في هذا البلد، والدور الذي لعبته الدولة في هذا المجال وما أصدرته من تشريعات قانونية خلقت الاسس لإنبثاق علاقات السوق. كما أشارت المؤلفة كذلك إلى الدور المتميز للرأسماليين والتجار الأجانب في هذه العملية. وقد رافقت هذه العمليات تجريد الفلاحين بانتزاع أراضيهم، وبناء بيوت العمل الاجباري.... الخ. وإلى جانب ذلك فقد تميّز تطور الرأسمالية في بولندا بسمات محددة. ففي الوقت الذي كانت الحكومات في الغرب تقوم بدعم وتسريع التطور "الطبيعي" للصناعة، كانت المانيفاكوتورا في المملكة البولندية وإلى حد كبير منتجاً أجنبياً، مستورداً. ورغم أهمية مبادرة الحكومة البولندية في هذا المجال، إلا أنها لم تكن فقط سوى أحد عوامل التطور.

وبشأن دور الاسواق الخارجية، أشارت الكاتبة إلى أن الاسواق الروسية والسياسة الجمركية للقيصر الروسي لعبت دوراً مهماً في تطور الرأسمالية في المملكة البولندية. وعبر أمثلة عديدة، عرضت المؤلفة اعتماد صناعة المملكة وتأثر نموها على الاسواق الروسية. واستناداً إلى هذا العرض التاريخي توصلت روزا لوكسمبورغ إلى استنتاج قوامه أن الانفتاح الواسع لأسواق روسيا القيصرية أمام السلع البولندية يعد احد أهم العوامل المعجلة لنمو وتطور الصناعة البولندية حينذاك. وإضافة لذلك، شخّصت روزا لوكسمبورغ العلاقة الناشئة بين تطور الصناعة والتحويلات التي حدثت في الزراعة، والتي رأت فيها الاستقطابات الحاصلة في أوساط الفلاحين وأهميتها بالنسبة لنمو طبقة العمال الاجراء.

أما في الجزء الثاني فتنشغل الكاتبة بالسياسة الاقتصادية للقيصر الروسي الهادفة لتسريع تطور الصناعة في المملكة البولندية. وفي عرض متمع، طرحت المؤلفة حال العلاقات الناشئة بين البرجوازية الروسية والبرجوازية البولندية وكذلك موقف حكومات القيصر لتذليل الخلافات الناشئة بينهما. وكان هناك العديد من الساسة البولنديين ممن يضحك الخلافات الناشئة بين برجوازية البلدين، ويعتبرها تناقضات تناحرية غير قابلة للحل، غير أن روزا لوكسمبورغ لم تشاطر هذا الطرح، بل أكدت على انبثاق تقسيم

¹ أنظر: روزا لوكسمبورغ، *تطور الصناعة في بولندا*، وارشو 1957، ص 5.

عمل بين الصناعة الروسية والصناعة البولندية، وتبلور مصالح مشتركة بين مجموعات الصناعيين الروس والبولنديين، ودون أن يعني ذلك عدم بروز تناقضات بين حين وآخر.

يبدو من العرض السابق أن روزا لوكسمبورغ رأت فقط الاتجاهات الجاذبة للمركز في إطار التطور الرأسمالي. وبالقدر الذي يتعلق بالقضية البولندية، كان هذا يعني أن المؤلفة رأت فقط الاتجاه لنمو الصناعة البولندية وعموم الاقتصاد ضمن سياق الدول الكبرى.

وعلى الفور تعرّض الطرح الذي قدمته لوكسمبورغ، في عملها " تطور الصناعة في المملكة البولندية"، إلى هجوم قوي من طرف إيديولوجي الحزب الإشتراكي البولندي PPS الذين سعوا للتأكيد على القضايا التالية²:

1. لم يكن تطور صناعة المملكة البولندية مصطنعاً، وليس نتاج عوامل خارجية كذلك، بل كان ناجماً عن التحولات الداخلية، بفضل السوق المحلية وبدعم من السلطات البولندية.
2. كان ميزان المبادلات الإقتصادية للملكة البولندية مع روسيا سلبياً في الواقع. وبالرغم من أن الأسواق الشرقية أمنت أرباحاً هائلة إلا أنها تسببت، في الوقت ذاته، في تطور خطير وأحادي الجانب، للصناعة البولندية.
3. وإذا ما استمرت العلاقة مع روسيا القيصرية فإنه سيحدث إنهيار تدريجي للصناعة البولندية.
4. أما في حالة الانفصال عن روسيا فسيكون لدى الصناعة البولندية ظروفاً ملائمة للتطور. فهي لن تخسر أبداً الأسواق الشرقية، وستكون سيده على سوقها المحلية، كما أن الدولة ستتمكن من تحديث الإنتاج، وسيساعد ذلك في الولوج إلى الأسواق الغربية.
5. لم تكن العلاقات الإقتصادية بين البلدين قوية، كما أن فصلها لن يقود بالضرورة إلى التأثير الفوري والمباشر على ميكانيزم العلاقات السياسية.

يسمح العرض المكثف السابق بالإستنتاج بأن إعادة بناء إستقلال بولندا، من وجهة النظر الإقتصادية، سيكون ممكناً تماماً ومفيداً للبرجوازية البولندية كذلك، مما يبهر الأمل، من طرفها، للتطلعات الإستقلالية. غير أن بعض المؤرخين الإقتصاديين الكبار في بولندا قد شاطروا وجهة نظر روزا لوكسمبورغ، بصدد القضايا الأساسية التي طرحتها في عملها المشار إليه.

من المفيد الإشارة هنا إلى أنه وأثناء فترة الكفاح ضد " اللوكسمبورغية " داخل الحركة الشيوعية العالمية إعتبر التحليل الإقتصادي المطروح في " تطور الصناعة ... " خاطئاً بالكامل. حيث تم الإستنتاج، وعبر مقارنة خاطئة بعمل لينين المعروف " تطور الرأسمالية في روسيا "، بأن روزا لوكسمبورغ عرضت، في هذا العمل، تصوراً لإنبثاق وتطور الرأسمالية معادياً للماركسية واللينينية، وصاغت مفهوماً يستند إلى العوامل الخارجية (وبالأخص الأسواق) إضافة لعملها: تراكم رأس المال الذي شكل لاحقاً التعليل النظري لهذا المفهوم وكذلك تطوره اللاحق بصيغة نظريات خاطئة للإمبريالية والإنهيار الألي Automaticly للرأسمالية).

لاحقاً، وفي بداية الستينات من القرن العشرين، تجاوز الإقتصاديون البولون الرأي الذي كان سائداً تجاه "تطور الرأسمالية... " باعتبارها يمثل جزءاً من نسق خاطئ لأفكار روزا لوكسمبورغ. فقد ميز الإقتصادي البولندي المعروف وأحد أهم المتخصصين بفكر روزا لوكسمبورغ، البروفيسور جوزيف زافادسكي، بين هذا العمل وعملها الأهم " تراكم رأس المال " (في تقريره المقدم للندوة العلمية المكرسة للذكرى المئوية لميلاد عالم الإجتماع والمفكر البولندي المعروف يولييان مارخليفسكي)، حيث أشار إلى ما يلي: " لقد

² لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى كوشوتسكي S.Koszutski الذي يعد مؤلف أكثر الأعمال أهمية حول التطور الإقتصادي للملكة البولندية. قارن: س. كوشوتسكي، تطور الصناعة الكبيرة في المملكة البولندية، وارشو 1901؛ كذلك لنفس الكاتب: التطور الإقتصادي للملكة البولندية في السنوات الثلاثين الأخيرة، وارشو 1905 (باللغة البولندية).

ظهر " التراكم " (المقصود كتاب روزا لوكسمبورغ : تراكم رأس المال - ص.بي) مباشرة قبل الحرب الإمبريالية الأولى، وكان محاولة لصياغة نظرية للإمبريالية، في حين أن كتابها الآخر: تطور الصناعة في بولندا ظهر في تلك الفترة، حيث إنبثقت الإمبريالية للتو، وحيث لم يكن هناك من الحركة العمالية من لاحظ هذه المرحلة المتميزة من تطور الرأسمالية، وكان هذا العمل الأخير بمثابة محاولة لتفسير اتجاه تطور بلد صغير وغير مستقل " ³. ومن دون رفضه للعديد من " الأفكار الخاطئة " في عمل روزا لوكسمبورغ هذا، إلا أنه أكد على صواب فكرتها الإقتصادية الرئيسية في هذا العمل - حول دور الأسواق الشرقية بالنسبة للإقتصاد البولندي - من وجهة نظر العملية التاريخية الملموسة، وكذلك على صعيد أفق زمني أوسع. في حين بين تاديوش كوفاليك Tadeusz Kowalik خطأ المقاربة والمقارنة بين عمل روزا لوكسمبورغ " تطور الرأسمالية في المملكة البولندية " وعمل لينين " تطور الرأسمالية في روسيا "، وذلك بسبب إختلاف موضوعات الكتابين. فلينين، كما يؤكد كوفاليك، تناول قضية تطور الرأسمالية في روسيا من وجهة نظر السوق المحلية، في حين انشغلت روزا لوكسمبورغ ببحث الشروط الخارجية لتطور الصناعة، في الأطراف الغربية للإمبراطورية الروسية. ولهذا إستنتج كوفاليك بأن المدخلين يكمل أحدهما الآخر، وأنهما يتيحان، مجتمعين، القيام بتركيب نظري مهم لإشكالية التطور هذه ⁴.

وإستنادا الى العرض المكثف السابق يمكن تلخيص العناصر الصحيحة في عمل روزا لوكسمبورغ متمثلة في القضايا التالية :

1. إن التحليل الإقتصادي الذي قامت به كان، من حيث الأساس، صحيحاً عندما يتعلق الأمر بالفترة التي تم فيها كتابة اطروحتها هذه. ويبدو أن الموضوعات الصائبة في " تطور الرأسمالية ... " تتمثل في ما يلي:

- أن الأسواق الشرقية لعبت دوراً رئيسياً في التصنيع الرأسمالي للمملكة البولندية.
- فاقت المنافع الإقتصادية لإتحاد المملكة البولندية مع روسيا القيصرية وبشكل واضح الخسائر الناجمة عن ذلك الإتحاد.

2. إن المقارنة بين عمل لينين وعمل روزا لوكسمبورغ خاطئ، من الناحية المنهجية، بسبب إختلاف موضوعات البحث وإشكاليات التحليل.

المبحث الثاني:

ظهور " التحريفية " في الحركة العمالية الألمانية

وعملا روزا لوكسمبورغ:

" إصلاح إجتماعي أم ثورة ؟ " و " الميليشيا والعسكرة "

" إصلاح إجتماعي أم ثورة "

انتقلت روزا لوكسمبورغ الى ألمانيا التي كانت آنذاك مركز الحركة العمالية العالمية، عندما فقد وجودها في سويسرا معناه نظراً لأن الحزب في الداخل والذي عملت له مجموعة " القضية العمالية " قد توقف عن النشاط نتيجة لحملة الاعتقالات التي طالت أعضائه. وبسبب هذا الموقع إندلع هناك الصراع السياسي والنظري المعروف حول القضايا الأساسية لهذه الحركة.

³ قارن : يوليان مارخليفسكي، مواد الندوة العلمية المكرسة للذكرى المئوية لميلاده. وارشو 1968، ص 132 - 133 (باللغة البولندية).
⁴ تاديوش كوفاليك، روزا لوكسمبورغ. نظرية التراكم والإمبريالية، فروتسواف 1971، ص 13-15 (باللغة البولندية)

كما هو معلوم نُشر في أوساط الـ **SPD** البرنامج المقر في عام 1891. تضمن الجزء الأول - الجزء النظري العام - المبادئ والهدف النهائي للإشتراكية الديمقراطية، أما الجزء الثاني - العملي - فقد تضمن المطالب التي يمكن تحقيقها في إطار المجتمع الرأسمالي. وكان النضال من أجل الإصلاحات خاضعاً للمبادئ والهدف النهائي. فعلى سبيل المثال كان النضال الانتخابي يستخدم قبل كل شيء للتحريض وليس لإنتراع أكبر عدد من المقاعد النيابية. وبحسب النظرية الماركسية، والتي كان البرنامج يستند إليها، فإن الإشتراكية تتحقق عبر الثورة وحدها. ومن الطبيعي فإن القضايا المتعلقة بأسئلة من قبيل: متى وبأي طريقة سيتم الوصول الى الثورة، وكيف ستجري؟ لم تكن واضحة بما فيه الكفاية. وجرى الإقرار، بشكل عام، بأن تطور الرأسمالية سيقود الى تركّز سريع لرأس المال، وبالنتيجة الى إنخفاض سريع لحجم البرجوازية وتدميراً شاملاً للمنتجين السلعيين الصغار، والى حد إختفاء هذه الشريحة، هذا إضافة الى نمو مطلق ونسبي للطبقة العاملة، والى إملاق نسبي للبروليتاريا وتجذرها.

ومن جهة أخرى، فقد أعطي دور خاص ومتميز للأزمات الاقتصادية لفيض الإنتاج، فعلى سبيل المثال كانت أزمة 1873 - 1874 أوسع من سابقتها. وجرى الإستنتاج بأن نمطا كهذا من الكوارث **Katastrof** سيكون أكثر حدة وسيكرر بإستمرار، وأن الوجود اللاحق للرأسمالية سيكون، في نهاية المطاف، غير ممكن من الناحية الإقتصادية، في حين ستصبح الإشتراكية ضرورة لامدوحة منها. وتحت قيادة الإشتراكية الديمقراطية ستطيح الجماهير البروليتارية المثورة بهيمنة رأس المال، وسيتم إعتقاد المبادئ الإقتصادية والإجتماعية للإشتراكية. وكان ذلك هو ما يسمى بنظرية إنهيار **Krach** الرأسمالية. غير أن تطور الرأسمالية الفعلي إتخذ منحى مغايراً لإطروحات ايدولوجيي **SPD**.

كان الأفق الثوري الذي وقف أمام ذلك غير واضح. كما أن النضال الثوري للحزب الإشتراكي والنقابات العمالية قد أتاح للطبقة العاملة تحقيق مكتسبات ملحوظة، وأن هذا النضال جلب كذلك للإشتراكية الديمقراطية الألمانية أنصاراً في أوساط الرجوازية الصغيرة الألمانية، تلك التي كان حجمها كبيراً حينذاك. وكان إجتذاب البرجوازية الصغيرة مشروطاً بتوقف الإشتراكية الديمقراطية عن التلويح بالثورة، كما أن "التكتيك الإصلاحي" طُرح كذلك كمطلب من طرف الأرسقراطية العمالية، وبالأخص البيروقراطية الحزبية والنقابية.

وخلال فترة محددة من الزمن بدا وكان هذا التكتيك لا يتعارض مع المبادئ والهدف النهائي للحركة. أما فيما بعد، وعندما تبين أن التناقضات بين الإصلاح وبين هذه المبادئ والهدف النهائي قد بدت بالإكتشاف تدريجياً، عندها بدأت الإنحرافات عن تلك المبادئ تتضاعف. ويمكن طرح العديد من الأمثلة في هذا المجال، من بينها على سبيل المثال: المساومات الانتخابية التي جرت مع أحزاب البرجوازية الصغيرة - والتي عُقدت في البداية بشكل نادر و فقط على المستوى المحلي - أصبحت فيما بعد قاعدة على المستوى الوطني. وتوصل العديد من النشطاء الى قناعة بأن الحصول على أغلبية في البرلمان يعد أمراً ممكناً، وأن ذلك هو "الطريق السليم" الى الإشتراكية.

وقد بدأت مجموعة من هؤلاء النشطاء بتطويع النظرية لصالح التكتيك الإصلاحي للحزب. وكان ذلك يعني إعادة النظر **Revision** بالماركسية ذاتها، حيث جرى التأكيد، هنا، على عدم راهنية بعض أفكار مؤسسها، إضافة الى عدم جدوى تلك الأفكار في الظروف الجديدة!. وقد إقترن ذلك بطرح موضوعات جديدة شكلت نسقاً نظرياً علّل المفهوم الإصلاحي الإستراتيجي الذي كان قد وُضع موضع التطبيق في الممارسة العملية. ونظراً لأن نسق المفاهيم الإصلاحية معروف بما فيه الكفاية في الادب السياسي

الماركسي، لذا الحاجة للدخول في تفاصيله بل يمكن العودة الى العديد من الدراسات بهذا الخصوص⁵. غير أن من المفيد التذكير بحقيقة أن تلك المبررات (الحجج أو الذرائع) الإقتصادية المشار إليها سابقاً قد شكلت الجزء الجوهرى من هذا النسق. كما طُورت تلك الحجج من طرف برنشتاين في سلسلة مقالات نُشرت ابتداءً من 1896 في (Neue Ziet)، وجمعت فيما بعد وظهرت في كتاب عنوانه: **علام الإشتراكية ومهام الإشتراكية الديمقراطية**.

انطلق برنشتاين من فرضية أن النظرية الماركسية تعاني من أزمة، الأمر الذي يتطلب، بنظره، إعادة نظر/تنقيح **Revision** مقولات هذه النظرية لأن التطورات التي طرأت على النظام الرأسمالي العالمي قد أثبت خطأها إن حزناً أو كلياً، حسب زعمه. وقد أكد برنشتاين على أن للرأسمالية قدرة كبيرة على التكيف وتجاوز تناقضاتها، الأمر الذي يتطلب من الإشتراكيين، في رأيه، مراجعة موقفهم القائل بـ "الانهيار الحتمي للرأسمالية" لأن كل المؤشرات تدل على أن ظهور الشركات الاحتكارية في صلب المنظومة الرأسمالية العالمية سيقضي على فوضى الإنتاج وعلى الأزمات الدورية. وبحسب برنشتاين، صارت الرأسمالية أكثر مرونة، وخصوصاً النظام الإئتماني المعاصر والكراتلات الصناعية. واستخلص من هذا الطرح نتيجة واحدة هي التالية: إذا إختفى فيض الإنتاج وضعفت الأزمات فإن الرأسمالية لا يمكن أن تكون محدودة إقتصادياً. وإرتباطاً بذلك، رفض برنشتاين العديد من الموضوعات، من بينها: **الإملاق النسبي للبروليتاريا، إنخفاض عدد البرجوازية، الإنهيار الشامل للبرجوازية الصغيرة وإضمحلها، وكذلك النمو المطلق والنسبي السريع للطبقة العاملة**. وقاده ذلك الى نتيجة واحدة ووحيدة هي: أن الثورة البروليتارية غير ممكنة، وهذا هو لب اشكاليته! وبحسب تصوره فإن الطريق الواقعي الوحيد كان يتمثل، آنذاك، في نشاط النقابات العمالية، والتعاونيات وكذلك أحزاب الإشتراكية الديمقراطية، الناشطة من أجل تحقيق إصلاحات تقدمية بالتحالف مع البرجوازية الصغيرة، بل وحتى مع البرجوازية الليبرالية. إن رأسمالية ذات "إنتاج مجمع" من طرف الكراتلات، رأسمالية بدون أزمات وبطالة، رأسمالية في ظل أجور عالية ونزوع نحو مساواة في الدخل، هي كل ما يمكن أن يؤدي الى إنتقال تدريجي نحو الإشتراكية، أكد برنشتاين.

ومن جانب آخر ساند برنشتاين التوسع الكولونيالي الألماني، معتبراً أن لهذا التوسع فائدتين متزامنتين: **نشر الحضارة في المستعمرات من جهة، وتحسين الأوضاع المادية للبروليتاريا في البلدان الرأسمالية من جهة أخرى**. وإضافة لذلك فقد طالب بسياسة "امبريالية اشتراكية **Socio-imperialist**"، أي سياسة تقوم على "تمدين الشعوب المتخلفة"! إن هذا العرض المكثف لنظرية "الرأسمالية المنظمة"، المصاغ من طرف برنشتاين قد جرى إكماله من طرف آخرين، وخصوصاً من طرف (R. Calwer) و (P. Julmann)⁶.

أما على صعيد **SPD** فقد جرى خوض الكفاح ضد "التحريفية". فقد انضمت روزا لوكسمبورغ سريعاً الى هذه المعركة، ونشرت عدة مقالات ضد برنشتاين ورفاقه. وفي سجالها مع "التحريفين" دافعت روزا عن النظرية الثورية لماركس وأنجلس، وبرهنت على حيويتها وراهنيتها برغم تبدل الظروف، وكشفت جوهر وخطر "التحريفية". وقد حظي موقفها هذا بدعم كبير في أوساط **SPD**.

وفي صراعها مع "التحريفية"، أصبح التناول الشامل للمشكلات الإقتصادية والسياسية القضية الأهم. ويبدو هذا التناول المتميز واضحاً في كيفية معالجتها للقضية الأساسية: **الحركة أم الهدف النهائي**. لنتذكر

⁵ هناك عرض إنتقادي لهذه الإشكاليات يمكن العثور عليه في: ز. كلاوز - فوشيفيج، **نظرية تطور الرأسمالية في نقاشات الإشتراكية الديمقراطية الألمانية 1891 - 1914**، وارشو 1963؛ روزا لوكسمبرغ، **أزمة الإشتراكية الديمقراطية**. كتابات مختارة، المجلد الثاني، وارشو 1959؛ م. فالدينبرغ، **تألق وانهبهار كارل كاوتسكى**. كراكوف 1972. (وجميعها باللغة البولندية).

⁶ **R. Calwer, Kartelle und Sozialdemokratie**, "Sozialistische Monatshefte" 1907, nr ;

P. Julmann, Freie Konkurrenz und industrielle Organisation. Studien zur kapitalistischen Okonomie der Gegenwart "Neue Zeit" 1907, nr 35

أن برنشتاين أكد على أن الهدف النهائي (أي الثورة الاشتراكية واقامة الاشتراكية) لا يعني أي شيء بالنسبة له، في حين تعني الحركة كل شيء. أما بالنسبة لروزا لوكسمبورغ فالأمر عكس ذلك تماماً. فمن جهة يمثل الهدف النهائي العامل المؤثر على عموم الحركة، ومن جهة أخرى هناك وحدة جدلية بين النضالات اليومية والاهداف الجزئية من جهة، والنضال من اجل الهدف النهائي من جهة ثانية، حيث الهدف النهائي يوحد النضالات اليومية في حركة شاملة. فهناك حيث تفتقد هذه الوحدة لن تصبح النضالات اليومية، المطلوبة والنقابية والبرلمانية، حزء عضويا من الحركة الثورية، بل حتى قد تتحول الى صيغة لإندماج الطبقة العاملة بالنظام الرأسمالي. وبهذا الصدد كتبت قائلة : "إن أية حركة بدون الارتباط بالهدف النهائي، حركة كهدف قائم بحد ذاته، لا تعني أي شيء بالنسبة لي، الهدف النهائي هو كل شيء" ⁷.

ومن جهة أخرى، فإن المنظر الأساسي لـ SPD (كارل كاوتسكي) كان قد تردد طويلاً في تدشين النقاش في الحزب حول مفاهيم وإطروحات برنشتاين. أما مواقف روزا لوكسمبورغ وكاوتسكي، وغيرهما، فقد كانت متقاربة بصدد مختلف القضايا الاقتصادية تقريباً: **تركز رأس المال ونتاجه، إملاق البروليتاريا، الإحتكارات وتأثيرها على الإقتصاد، الأزمات والإنهيار... الخ.** ومن جانب آخر، كانت قضية الدولة والبرلمانية تمثل الموضوع الأكثر إثارة للجدل في أوساط منظري SPD. وقد طالت المساجلات قضايا عديدة من بينها اتجاه وطبيعة التغيرات الحاصلة في الدولة الرأسمالية.

وبهدف فهم المعزى الحقيقي للمساجلات هذه نعرض هنا موقف برنشتاين الذي يتمثل بإختصار شديد بما يلي:

- يُجبر تطور الرأسمالية الدولة على التدخل في الحقل الإقتصادي، بتلك الطريقة التي تتيح حدوث تغيرات أساسية في طبيعة هذا النظام.
- وبفضل هذه التغيرات تنبثق، في بنية هذا النظام، عناصر الدولة الإشتراكية، الأمر الذي يجد تعبيره في قبول دور الفاعل (الذات) السياسي من طرف المجتمع.

يبدو أن ثمة حاجة ملحة لعرض بعض أسس الرؤية الماركسية للدولة منعاً لأي التباس أو خلط وبما يساعد في توضيح الخطوط الفاصلة بين لوكسمبرغ وبرنشتاين. ولتحقيق ذلك لا بد من التأكيد على القضايا التالية ⁸:

- تهتم الماركسية بالعلاقة ما بين الطبقات وسلطة الدولة، انطلاقاً من سبب معين بذاته. فالماركسية تنظر الى الدولة كمؤسسة مادية منفصلة تتمركز عندها علاقات القوة ضمن المجتمع. إذ ليس الدولة، من هذا المنظور، سلطة بذاتها، حيث أنها المؤسسة التي تتجمع السلطة الإجتماعية فيها وتمارس. ومن أجل أن ندرس مكان الدولة ضمن عمليات إعادة الإنتاج الإجتماعي، يتوجب علينا، قبل كل شيء، أن نطرح السؤال التالي: **ما الذي يعاد إنتاجه؟** وكإجابة، يمكننا أن نحدد ثلاثة أمور رئيسية: **علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، وطابع جهاز الدولة، والبنى الفوقية والإيديولوجية المعنية،** بأجهزتها المتخصصة في التأهيل والإخضاع. في هذه المجالات الثلاثة كلها تتم إعادة إنتاج المواقع والعمليات، في نفس الوقت الذي تتم فيه إعادة إنتاج الأفراد المناسبين (أو تجنيد عناصر جديدة) وبأعداد ضافية لملء المراكز.

⁷ روزا لوكسمبرغ، *اصلاح اجتماعي أم ثورة؟*، كتابات مختارة، الجزء الاول، وارشو 1959، ص 188 (باللغة البولندية).
⁸ لمزيد من التفاصيل قارن: **ف. أنجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة.** (في): ك.ماركس، ف.أنجلس: المؤلفات، المجلد 21، وارشو 1969 (بالبولندية)؛ ك.ماركس: **الثامن عشر من برومير لويس بونابرت.** (في): ك.ماركس، ف.أنجلس: المؤلفات، المجلد 8، باللغة البولندية؛ أندريه توزيل، سيزار لوبوريني، **ايتين باليبار، ماركس ونقده للسياسة،** ترجمة جوزيف عبد الله، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1981؛ **تشييركين، جيدكوف، يودين، أسس النظرية الاشتراكية بصدد الدولة والحق،** دار التقدم، موسكو 1979، د.صاحب ياسين العلي، **موضوعات حول مفهوم البرجوازية البيروقراطية،** " النهج"، العدد 7/شباط 1985، ص 126 ولاحقاً.

- للدولة وظيفة سياسية شاملة تسعى الى تحقيق ترابط مستويات التشكيل الإجتماعي وذلك بإعادة إنتاج التناقضات والأوضاع القائمة. ويعني ذلك أن إعادة إنتاج هذه الأوضاع وتلك التناقضات يسير في اتجاه تحقيق مصالح الطبقة المسيطرة (أو الائتلاف الطبقي المهيمن) داخل التشكيل الإجتماعي. يتعين، إذن، عدم الاكتفاء بالفهم " التقليدي " للدولة – أداة " قوة " - بل اعتبارها " منظم للهيمنة "، كما أشار الى ذلك المفكر الإيطالي الكبير غرامشي. ويعني ذلك تعريف الدولة انطلاقاً من دورها الإجتماعي والسياسي بالدرجة الأولى.
- إن سلطة الدولة في المجتمعات الطبقيّة هي لحظة من التناقض الذي يعكس الصراع الطبقي السياسي أطرافه ونتائجه. الدولة، إذن، ليست محايدة وحكماً بين القوى المتصارعة، كما تبدو ظاهرياً، وفي الواقع يجب النظر الى سلطة الدولة بكونها وحدة متناقضة. هذه الوحدة ممكنة، إذ أن المؤسسات في الدولة الطبقيّة تمتلك تماسكا داخليا خاصا بها ومستقلا تجاه البنيات الإقتصادية وكذلك تجاه الطبقات أو فئات الطبقة المسيطرة. هذه الملاحظة ضرورية إذ أنها تتحاشى جعل الدولة مجرد شيء وأداة بيد الطبقة المسيطرة.
- من الضروري، في هذا المجال، التذكير بأن استقلالية جهاز الدولة لا تعني استقلال هذا الجهاز عن الطبقات المتصارعة، بل عن الفئات الطبقيّة داخل الطبقة المسيطرة. فاستقلال جهاز الدولة هذا لا يكون إلا في تبعيتها المباشرة للطبقة المسيطرة ككل. معنى هذا أن استقلاله النسبي (أي جهاز الدولة) يتيح له ضبط تطور التناقضات الثانوية بين فئات الطبقة المسيطرة ومنعها أن تنفجر حين تعجز فئة أو طبقة من فرض هيمنتها الطبقيّة داخل الطبقة المسيطرة أو الائتلاف الطبقي المهيمن. إن التدخل المباشر لجهاز الدولة هو إذن لإتقان الوجود المسيطر للطبقة المسيطرة، بتحقيق الهيمنة الطبقيّة للفئة المهيمنة فيها، والتي تعجز في ظروف تاريخية محددة، من فرض هيمنتها الطبقيّة. ولهذا فإن المقصود هنا بـ " الاستقلال النسبي " للدولة هو أن سياستها تمثل محصلة الممارسة السياسية والعملية، والتي يتعين عليها باستمرار أن توفق بين مصالح جماعات مختلفة والتي تكون شديدة التأثير بتاريخ طويل لمثل هذه التسويات والإيديولوجيات التي تقف ورائها. لذلك فإن سياسات الدولة ليست بالضرورة عقلانية بأي معنى من المعاني البسيطة. غير أن أهمية الإستقلال النسبي للدولة يتجلى بوضوح صارخ في حقبات تاريخية تصبح فيها التناقضات شديدة الى حد كبير، ولا يسمح ميزان القوى القائم، في اللحظة التاريخية المعنية، لأي من هذه الطبقات أن تفرض سلطتها بصورة مستديمة، مما يستدعي مجيء بيروقراطية الدولة وارتقائها فوق الطبقات، ناصبة نفسها قوة مستقلة وتقيم مؤقتا سلطتها غير الخاضعة للرقابة. ويعبر النموذج البونابرتي عن هذه الأطروحة بأعمق الوضوح.
- ليست الدولة في بنيتها واقعا ثابتا، بل يحتمل شكل الدولة تغيرات هي نتاج ورهان الصراع الطبقي السياسي. في المجتمع الراسمالي لا تستخدم البرجوازية الدولة كما لو أنها علاقة تصرف حر إرادي تجاهها. تتشكل البرجوازية، ويعاد تشكيلها، كطبقة بفضل تغيرات الدولة كآلة، كما أشار ماركس في (برومير لويس بونابرت). وإذا لم يكن مفهوم آلة الدولة قد أعلن اسميا، فهو حاضر عمليا، ويظهر كنتاج للنضالات التكوينية الصرفة للبرجوازية كقوة سياسية. تتضمن السلطة السياسية لطبقة ما (مثل البرجوازية)، والتي هي نتاج وشرط لسيادتها الطبقيّة الإقتصادية، سلطة فعلية لممثلي هذه الطبقة على آلة الدولة. وهؤلاء الممثلون هم أنفسهم دوما أعضاء شريحة محددة من الطبقة المسيطرة. لذلك يمكن للسلطة السياسية أن تكون رهان صراع فيما بين هذه الشرائح. إلا أنه يجب عدم خلط السلطة الفعلية الخاصة بالماسكين بالآلة الدولة مع سلطة آلة الدولة المنظمة قانونيا على المجتمع: إن هذه السلطة المنظمة قانونيا هي التي توّول الى تحقيق السلطة الفعلية. ولا تظهر السلطة السياسية للدولة، أبدا، في شكل علاقة مباشرة بين طبقة وأخرى. إنه لصحيح من جهة، أن العلاقة الطبقيّة تحفظ ويعاد إنتاجها على مستوى السلطة السياسية للدولة، كما أنه لصحيح، من جهة أخرى، أن وجود الدولة كأداة، يحقق في شكل معدل السيطرة السياسية للطبقة المسيطرة.

- تحقق آلة الدولة علاقة طبقية تنعقد في مكان آخر، في الميدان الإقتصادي. بيد أن الميكانيزم الذي يحقق هذه العلاقة، يحققها وهو يعمل، على إخفائها. فلا دخل أبداً للدولة، كأداة، بالطبقات كطبقات، ولا بالطبقات التي تمسك بالسلطة، ولا بتلك المسيطر عليها سياسياً. إن عمل الدولة الأخير الذي يتكون بفعل وجودها وتحولها الخاصين بها، هو تكوين المجتمع والدولة نفسها في مواجهة أحدهما للآخر، باعتبار هذا التعارض هو في الوقت نفسه، تبعية وتوحيد. وهي تجعل سيطرة المصالح المهيمنة ممكنة بفضل تحقيقها من خلال تغليف المجتمع الذي تحققه بمثابة دولة. هكذا يسمح اشتغالها بممارسة السلطة من قبل الممثلين " الشرعيين " الذين تكونوا لهذا الغرض، من أجل احتلال موقع ممثلي المجتمع، الموقع الذي اكتسب شرعيته سياسياً وتم إخفاؤه.

لا تعني الملاحظات السابقة أن الدولة طاقم مفكك الأقسام كتفسير " لتقاسم " السلطة السياسية بين طبقات وشرائح متعددة، بل العكس، ففوق التناقضات ضمن الأجهزة وخلفها، تحمل الدولة دائماً وحدة داخلية متميزة، هي وحدة سلطة الطبقة المسيطرة أو الفئة المهيمنة، ولكن هذا يحدث بشكل معقد وليس بصيغة مباشرة، بل عبر توسطات. ولقد أشار ماركس الى أن الصراع الطبقي السياسي هو التعبير المركز والمكثف عن الصراع الطبقي الإقتصادي. إن لهذا الصراع أولوية بالنسبة للبرجوازية، ذلك أنها وحدها التي تسمح للدولة باحتواء المجتمع، في الوقت الذي تتعارض فيه معه، وذلك وفق طرق تتطلب تخصصاً ومركزة خارجين لآلتها.

وإضافة لذلك لا بد من التحذير من أمرين:

- الأول، هو الخلط بين مفهوم " سلطة الدولة " ومفهوم " جهاز الدولة " واعتبارهما شيئاً واحداً. ومن ثم يتبنى مفهوماً أداتياً للسلطة السياسية، يعتبر السلطة أداة في يد الطبقة الحاكمة، وليست علاقة قوى طبقية بين الطبقات الحاكمة، وبين تلك الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة من ناحية أخرى.
- الأمر الثاني، هو عدم التمييز بين الطبقة (أو الطبقات) المسيطرة سياسياً والطبقة (أو الطبقات) المسيطرة إقتصادياً، وهو خطأ منهجي واضح. هذا المفهوم للسلطة هو مفهوم ميكانيكي لأنه يعتبر السلطة أداة في يد الطبقة الحاكمة، ويعتبر السلطة والثروة وجهين لعملة واحدة. في حين أن السلطة هي كما ذكرنا علاقة قوى طبقية وليست أداة طبقية، كما أنها ليست انعكاساً آلياً للملكية والثروة، والطبقة المسيطرة إقتصادياً ليست بالضرورة الطبقة المسيطرة سياسياً، وفي التاريخ العديد من الأمثلة بهذا الشأن.

هذا على الصعيد النظري العام.

أما على الصعيد الملموس، فإن روزا لوكسمبورغ تتفق مع الفكرة القائلة بأن الدولة الرأسمالية المعاصرة تتضمن في طبيعتها عناصر محددة لشكل أو صيغة الدولة الاشتراكية، بذلك المعنى الذي تصوره ماركس حينما قال بما معناه أن حماية العمل هو أول تدخل واعى للمجتمع في سيرورة الحياة الإجتماعية. ومن جهة ثانية فإن دولة كهذه لن تتوقف عن أن تظل دولة طبقية، منظمة للطبقة الرأسمالية وللرأسماليين. كذلك فإن لهذه المؤسسات الديمقراطية، حسب تصور روزا لوكسمبورغ، طابع أدواتي Instrumentally هناك حيث تبين تلك المؤسسات " النزوع الى تأكيد أو تدعيم طابعها الطبقي كما أن البرجوازية ومؤسساتها الحكومية التمثيلية تكثف الأشكال الديمقراطيةية في حين أن البرلمانية، ككل، تبدو ليس عنصراً اشتراكياً مباشراً، بل وسيلة خاصة للدولة الطبقة البرجوازية " ⁹.

وترى روزا لوكسمبورغ إن الأمل المعبر عنه من طرف (برنشتاين) والمتمثل بإمكانية الاستحواذ على السلطة عن طريق الانتصار الانتخابي إنما هو مجرد وهم ! حقاً إن سيرورة الإنتاج تجعل، وبشكل

⁹ روزا لوكسمبورغ، إصلاح اجتماعي أم ثورة، مصدر سابق ص 172.

متصاعد، من انتصار الاشتراكية محتملاً، غير أن "العلاقات السياسية والحقوقية تضع جداراً عالياً بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي" ¹⁰. وتؤكد بأنه يمكن لـ "مطرقة الثورة"، لوحدها، أن تطيح بالرأسمالية. إن العناصر الجديدة في سياسة الدولة الرأسمالية هي، كما تؤكد روزا لوكسمبورغ، السياسة الجمركية، العسكرية، وتناقص أهمية البرلمانية.

إن الفكرة البرجوازية القائلة بأن البرلمانية تمثل المحور المركزي للحياة الاجتماعية، والقوة المحركة للتاريخ، إنما لها معنى دعائي فقط، إنها فكرة خاطئة، مضللة، بحسب روزا لوكسمبورغ. كما أن التاريخ هو عبارة عن لعبة القوى العمياء العفوية للتطور الاجتماعي. وبالضد مما تعلنه البرجوازية، فإن البرلمان لا يعتبر نتاجاً (أو أثراً) لتطور الديمقراطية، لنقدم البشرية أو الأشياء الجميلة الأخرى، إنه على العكس من ذلك تعتبره لوكسمبورغ "شكلاً تاريخياً محددًا للهيمنة الطبقية للبرجوازية" ¹¹. أما البرلمان من وجهة نظر البرجوازية، فقد كان له "حق الوجود" في الفترة المبكرة للرأسمالية، في ظروف النزاعات الطبقة الجارية آنذاك بين الأرستقراطية الإقطاعية التي تغيبت عن مسرح الأحداث والبرجوازية التي بدأت باحتلال مكانتها. وبحسب لوكسمبورغ، يُعد البرلمان حقيقة سياسية، هناك حيث توجد تعارضات طبقية هامة بين البرجوازية والأرستقراطية الإقطاعية، وحيث تندلع بينهما معارك طبقية كبرى ¹².

ومن جهة أخرى، شكلت الانتخابات البرلمانية موضوعاً لتأملات روزا لوكسمبورغ. عبّر المنظرون البرجوازيون، آنذاك، عن قناعة بأن الانتخابات البرلمانية تساعد في تكوين رؤية أدق عن علاقات القوى الحزبية في البلاد. ولكن بمقابل ذلك يلاحظ صمت مريب أمام معلم مهم قوامه أن التناسب البرلماني للقوى هو انعكاس للعلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمع معين. وبكلمة أخرى، يتم الافتراض بأن كمية وعدد الكتل البرلمانية هما انعكاس للبنية الاجتماعية الفعلية لمجتمع معين. تعتبر لوكسمبورغ هذا الاستنتاج زائفاً، لقناعتها بأن البرلمان البرجوازي يقدم لوحة غير صادقة للعلاقات الاجتماعية.

يمكن تلخيص المواقف من هذا العمل في القضايا التالية:

1. إن التحليل الإقتصادي - السياسي المطروح في "إصلاح اجتماعي أم ثورة؟" يتضمن عناصر صائبة بدون شك. حيث تبدو الموضوعات التالية لروزا لوكسمبورغ صحيحة:
 - 1.1 تعتبر الكارثة الاجتماعية والسياسية طريقاً مثالياً (نموذجياً) لتصفية النظام.
 - 2.1 يتمثل النضوج الملحوظ للعاملين الذاتي والموضوعي شرطاً لتصفية هذا النظام. وهنا يتمتع التطور الإقتصادي بأهمية أساسية.
 - 3.1 إن الإلتزامات (القروض)، الإحتكارات، والعقبات الإقتصادية الأخرى لا تستطيع بالكامل أن تنظم "الإقتصاد الرأسمالي".
 - 4.1 إن التسلح والأشكال الأخرى للتبذير ليست في وضع يتيح لها إزالة الصعوبات الإقتصادية للنظام، وأنها تصبح بحد ذاتها مرضه الأساسي.
 - 5.1 دخلت الرأسمالية في بداية القرن العشرين مرحلة جديدة من تطورها التاريخي، تمتاز بالمستوى العالي لتدويل الإقتصاد وعالمية الأزمات.

2. ولكن بمقابل ذلك فإن التحليل الإقتصادي - السياسي المطروح في "إصلاح اجتماعي أم ثورة؟" يتضمن ثغرات لا بد من تأشيرها. إذ أن تصورات روزا لوكسمبورغ، بصدد الظواهر الجديدة، تم صياغتها

¹⁰ المصدر السابق، ص 177 ، 178 .

¹¹ روزا لوكسمبورغ، *الإشتراكية الديمقراطية والبرلمانية*. أعمال مختارة، الجزء الأول، ص 317 (باللغة البولندية).

¹² المصدر السابق، ص 318.

ليس على أساس أبحاثها التطبيقية، بل عن طريق استخدام المبادئ العامة للنظرية الماركسية فقط، وقد تسبب ذلك في عمومية إستنتاجاتها. كما ساهم الرفض المسبق لموضوعات الخصم في التبسيط والرؤيا الأحادية الجانب.

3. والخلاصة، فإن الحجج الإقتصادية المعروضة في " إصلاح إجتماعي أم ثورة ؟ " كانت دفاعاً جيداً عن نظرية الثورة الماركسية، وكذلك بقية الموضوعات الأساسية للعلم الإقتصادي الماركسي في الظروف المتغيرة. غير أن روزا لوكسمبورغ لم تقدم، في هذا العمل، تحليلاً أصيلاً للظواهر الجديدة.

وبالرغم من كل ذلك فإن كتاب روزا لوكسمبورغ " إصلاح إجتماعي أم ثورة ؟ " قد تفوق على بقية الدراسات المناهضة لـ " التحريفية " في ألمانيا وأوروبا الغربية. أما في الحركة الشيوعية فقد اعتبر هذا العمل بمثابة واحد من أهم تلك الدراسات، وجرت ترجمته والإرتكان الية حتى نهاية العشرينات من القرن الماضي، غير أن الوضع تغير فيما بعد. ففي خلال سنوات الثلاثينات من القرن العشرين سادت قناعة قوامها أن روزا لوكسمبورغ " ارتكبت أخطاء خطيرة جداً " في هذا العمل. وفي النقد اللاحق جرى التأكيد على أن واحدة من أهم المنابع الجوهرية للنظرية اللوكسمبورغية " الخاطئة " بصدد الإمبريالية كانت تتمثل بعدم تقييم مؤلفة كتاب " إصلاح إجتماعي أم ثورة ؟ " لأهمية الإحتكارات، بما في ذلك رفض إمكانية الهيمنة الدائمة للإحتكارات على الإقتصاد الرأسمالي.

في الفترة اللاحقة، وبمقدار التخلي عن موضوعه " النسق الخاطئ للوكسمبرغية "، تغير كذلك التصور الذي كان سائداً في الحركة الشيوعية حول هذا الكتاب. فقد بدأ المؤرخون السوفيت والألمان الديمقراطيون وكذلك البولون بوضع هذا العمل في إطار الفترة التاريخية التي صدر فيها، والتعامل معه على هذا الأساس. وبالنتيجة فقد تم الكشف مجدداً عن قيمة هذا الكتاب وأهميته، بالمقارنة مع الأعمال السابقة، وكذلك أهميته الكبيرة في المعركة التي كانت مندلعة ضد " التحريفية والإصلاحية " في الحركة العمالية.

" الميليشيا والعسكرة "

بداية، وقبل الحديث عن كتاب " الميليشيا والعسكرة "، لا بد من الإشارة الى أنه يمكن رؤية العسكرة بثلاث معانٍ:

أولاً: العسكرة كإيديولوجية. وبهذا الصدد يمكن القول إن العسكرة هي الإيديولوجية الداعية للحرب أو الإيديولوجيا التي تطرح اهدافاً تستدعي الحرب. ومن وجهة النظر التاريخية الملموسة ترتبط العسكرة بالرأسمالية وتطورها على الصعيد العالمي وتنعكس – في حقلها الملموس- التناقضات المرافقة للرأسمالية ووسائل حلها. وبهذا الصدد تعرف العسكرة على أنها " مختلف الاشكال الإيديولوجية لتبرير السياسة الحربية للدول الرأسمالية وكذلك استخدامها للقوة في النزاعات المحلية " ¹³.

ثانياً: العسكرة كسياسة، أو على وجه الدقة كأحد تجليات السياسة التي يمارسها ذلك الجزء النشط من البناء الفوقي- الدولة. نقطة الانطلاق هنا هي اطروحة ماركس في كتابه الهام (18 برومير لويس بوناپرت) والتي اعتبرت الدولة آلة قمع تسمح للطبقات المسيطرة بتأمين سيطرتها على الطبقات الأخرى من أجل اخضاعها لعملية نهب متعاضم لفائض القيمة بما يسمح بتجديد انتاج النظام وفقاً لشروطها. غير أن تأمين تلك السيطرة يستدعي ممارسات ملموسة. وفي ظروف التدويل المتعاضم فإن تلك الممارسات الملموسة تتخذ طابعاً دولياً وتضع أمامها أهدافاً توسعية يتم تحقيقها باستخدام القوة المسلحة. وبهذا المعنى

¹³ انظر: ف.سكوبين، العسكرة، وارشو 1959، ص 64، باللغة البولندية.

فان العسكرة هي: " السياسة الرامية لتعزيز القوة المسلحة والاستعدادات الحربية لأهداف الحاقية والتي تنتهجها البلدان الرأسمالية والمتخذة مديّات واسعة في حقبة الامبريالية. إن تحقيق العسكرة يعني إخضاع الاقتصاد والسياسة والحياة الاجتماعية لأهداف الاستعداد للحرب " 14.

ثالثاً: العسكرة كظاهرة مرتبطة ببنية محددة للسلطة. وفقاً لهذا التصور يجري تناول العسكرة بمعنيين:

- العسكرة كتعبير عن الحكومات العسكرية المتوضعة كمجموعة اجتماعية مستقلة ومتميزة.
- العسكرة باعتبارها التأثير المقرر الذي يمتلكه العسكريون على سياسة الدولة وكذلك مختلف جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى، بغض النظر عما اذا كان ذلك التأثير يجري بشكل مكشوف أو تحت بافطات مقلعة.

وملموسياً، كانت العسكرة إحدى القضايا الأكثر جوهرية التي صارت موضوعاً لمسجلات حادة بين المنظرين والناشرين في الحزب الاشتراكي الألماني. فقد وقفت روزا لوكسمبورغ بالصد من أطروحات (ماكس شيبيل Max Schippl) ، الذي دافع عن الموضوعة القائلة بضرورة الجيش الدائم وتأثير العسكرة على إقتصاد البلاد، وقد اعتبر مطلبها باستبدال الجيش بميليشيا شعبية مطلباً غير عملي. وبحسب اعتقاد شيبيل فإن الميليشيا الشعبية ستكون نتيجة للتحوّل التدريجي والبطيء للنظام العسكري السائد آنذاك. أما بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، فتعد العسكرة أهم ما يميز الرأسمالية، وبالأخص مرحلتها الإمبريالية. وكتبت بهذا الصدد مشيرة الى إن العسكرة تمثل "التعبير الأهم والأكثر ملموسية للدولة الطبقة الرأسمالية " 15، وتضيف مؤكدة بأن "العسكرة تبلور سلطة وهيمنة الدولة الرأسمالية وكذلك الطبقة البرجوازية " 16. وفي مرحلة رأسمالية المنافسة لعبت العسكرة دوراً "ثورياً بالمعنى الرأسمالي"، أتاح خلق المنظمات الحكومية وعزز سلطة الدولة. وقد رافقت العسكرة الرأسمالية منذ ظهورها، ولعبت دوراً حاسماً في غزو "العالم الجديد"، وأدت منذ المرحلة الأولى وظائف عديدة. فعلى الصعيد الإقتصادي استولت على وسائل الإنتاج والمواد الخام في المناطق التي جرى الإستيلاء عليها، وفرضت على البلدان المستعمرة تجارة السلع وعقد اتفاقيات مفيدة لصالحها. وبهذه الطريقة تم تدمير البنى الاقتصادية المحلية. أما بالمعنى السوسيولوجي فقد أضعفت العسكرة الصلات (الروابط) الاجتماعية التقليدية، وبلّثت سكان المناطق المستولى عليها. أما على الصعيد السياسي فقد أدت العسكرة الى تقسيم مناطق النفوذ. وبكلمة أخرى، خلقت العسكرة شروطاً مثلى لتطور الرأسمالية.

وفي مثل هذه الظروف فإن سياسة العسكرة، بحسب روزا لوكسمبورغ، تفقد أهميتها، حتى من وجهة نظر الرأسمالية ذاتها. ولهذا فإن العسكرة والتسلح لا يمكن أن يتسببا في توسيع الرأسمالية على الصعيد العالمي، ذلك لأن العالم قد تم تقاسمه بين الضواري الاستعمارية. ومن هنا فإن العسكرة تعتبر ظاهرة سلبية، ذلك لأنه لو كان هناك احتمال بأن تندلع الحرب فإنها ستعني فقط كارثة مدمرة. وبهذا الصدد كتبت روزا لوكسمبورغ قائلة بأن خاصية العسكرة المعاصرة هي أنها استندت، في تطورها، على "التطور العام الإجمالي الحاصل في سياق التسلح في مختلف البلدان، وليس على القدرة المحلية وهكذا تحولت العسكرة من قوة محرّكة لتطور الرأسمالية الى مرض لها " 17.

ومن وجهة النظر الاقتصادية، تعني العسكرة تعاضم الإنفاق الحكومي على التسلح. أما من وجهة نظر المالكين الفرديين فإن سياسة حكومية من هذا القبيل تكون نافعة طبعاً. فالعقود الحكومية تمتاز عادة بالضخامة وبأسعار جذابة ومؤكدة. وبالإضافة لذلك فإن للإنتاج العسكري خاصية إيجابية، من وجهة النظر هذه، التي تتمثل في أنه يستحث التحديث الدائم. وبهذه الطريقة، كما تؤكد روزا لوكسمبورغ، تصبح العسكرة مصدراً جذاباً (إنتاجياً) للأرباح الرأسمالية، ويرتقي الرأسمال الى مرتبة القوة الاجتماعية المؤثرة. وطبقاً لها فإن العسكرة تُنتج آثاراً اجتماعية، وهو ما لم يلحظه (شيبيل)، باعتقادها. فكما هو

14 انظر: ي. فياتر، سوسيولوجيا الجيش، وارشو 1982، ص 284.

15 روزا لوكسمبورغ، حول الميليشيا والعسكرة. كتابات مختارة، المجلد 1، مصدر سابق، ص 261 (باللغة البولندية).

16 المصدر السابق، ص 128 - 129.

17 روزا لوكسمبورغ، إصلاح اجتماعي أم ثورة؟، مصدر سابق، ص 175. ولمزيد من التفاصيل انظر: ف.أ. لينين، العسكرية الكفاحية وتكتيك

الإشترابية الديمقراطية ضد العسكرية. المختارات في 10 مجلدات. دار التقدم، موسكو 1976.

معروف، يؤدي بناء القوات المسلحة الى توظيف عدد محدد من العاطلين على العمل، وتتقلص في الوقت نفسه المنافسة في سوق العمل. تؤدي هذه العملية الى استقرار الأجور وتحسن الوضع المادي للطبقة العاملة. غير أن هذه الميزة ذات طبيعة مؤقتة، ذلك لأن العامل " يربح كبائع لقوة العمل، ولكنه يفقد في الوقت نفسه الحرية السياسية للحركة كمواطن، ثم يخسر، في نهاية المطاف، كبائع لقوة العمل " 18. إن العامل في فقدانه لجزء من دخله على هيئة ضرائب غير مباشرة تخصصها الدولة لبناء الجيش، يساهم في الوقت نفسه في بناء أجهزة القمع، الذي يمكن أن تستخدم ضده، في أي وقت من الأوقات. وبالضد من رغبته، يصبح العامل خاضعاً لوصاية الرجعية السياسية للدولة. أما العسكرة فتعني تبذير القوى والوسائل، وكذلك تقليص الحريات السياسية، ومضاعفة استغلال الطبقة العاملة. وفي حين أنها – أي العسكرة - تصب في مصلحة البرجوازية، فهي تمثل " على المستوى الإقتصادي الاستثمار الأكثر جانبية، الذي لا يعوض، أما على المستوى الإجتماعي والسياسي فهي أحسن قاعدة لهيمنتها الطبقة " 19.

عارضت روزا لوكسمبورغ أطروحة (برنشتاين) حول القدرات التكيفية للرأسمالية، والمتمثلة بزوال التناقضات، مؤكدة على تعمقها واشتدادها. تجد هذه التناقضات مكانها في الحقل الإقتصادي، كما في الحقل الإجتماعي، على الصعيدين المحلي والدولي. واستناداً الى المعطيات الإحصائية، تبرهن لوكسمبورغ على أن الأزمات ما زالت ترافق الرأسمالية، ذلك لأنه لم تتم إزالة أسباب ظهورها. ولهذا فهي ترفض فكرة (شيبيل) حول أسباب الأزمات، إذ ليس صحيحاً القول بأن الأزمات تمثل عاقبة أو نتيجة لفيض الإنتاج والاستهلاك المتناقض. يقوم خطأ (شيبيل)، هنا، على افتراض قوامه أن الهدف الأساسي للإنتاج الرأسمالي يتمثل باستهلاك السلع، وليس كما بين ماركس، الحصول على فائض القيمة. ولروزا لوكسمبورغ موقف مماثل تماماً لموقف ماركس، فالأزمات، باعتقادها، تنجم عن النزوع الموضوعي الدائم للإنتاج الرأسمالي للانتقال خارج حدود التصريف، كما أن انعدام التخطيط الإقتصادي، عند مستوى معين، يعمق الفوضى في الإقتصاد الرأسمالي.

لقد كان (برنشتاين) على خطأ عندما أشار الى أن الائتمان يمكن أن يكون أداة أو وسيلة منعشة للإقتصاد الرأسمالي، سامحاً بتلطيف أو حتى تجاوز الوضع الأزموبي. كما أن النظام البنكي، حسب روزا لوكسمبورغ، يساهم في تعميق التناقضات الإقتصادية والاجتماعية للرأسمالية. فهو يمثل، في الحقل الإقتصادي، قوة داخلية محرّكة لنمو الإنتاج خارج مساحة السوق. غير أنه ينعكس سلباً على جانب آخر. فعندما يكون بمثابة معجل لسيرورة الإنتاج سيتسبب في ظهور فائض الإنتاج، إذ أنه في فترة الأزمة وحين يظهر كوسيط للتبادل السلعي، يدمر وبطريقة عاصفة القوى المنتجة، التي حفزها هو بحد ذاته. الائتمان، إذن، يشدّد من التناقضات بين طريقة الإنتاج ونمط التبادل، وكذلك بين نمط الإنتاج وطريقة الاستحواذ عليه. يحدث ذلك لأن الائتمان يفصل الإنتاج عن الملكية محولاً جزء من الربح الى فائدة على رأس المال. إن (برنشتاين) وامثاله ممن رفضوا نظرية الأزمات بدعوى أنها لم تبرهن على مصداقيتها خلال دورة العشرة سنوات " يخلطون بذلك بين جوهر النظرية والتجلي الظاهري لشكلها " 20. وما زال ميكانيزم الأزمات المعروف في "الرأسمال" وكذلك في عمل أنجلس - أنتي دوهرنك - يتمتع براهنيته ومصداقيته.

أما على المستوى العالمي، فإن التناقض المثالي للإمبريالية يتجسد بالتعارض بين مصالح رأس المال المحلي والنزعات التكاملية للتشكيلة، والذي يتجلى قبل كل شيء في السياسة الجمركية للدولة. وتعبّر روزا لوكسمبورغ عن فكرة قوامها أن الميزان التجاري لمختلف البلدان يعد مسألة ثانوية، من وجهة نظر الإقتصاد العالمي. ولأن الضرائب الحمائية ضرورية لمختلف القطاعات، فإن الصناعات على المستوى العالمي لا تحتاج إليها، غير أن تلك الضرائب لا تحمي الإنتاج الرأسمالي، بل على العكس من

18 روزا لوكسمبورغ، *الميليشيا والعسكرة*، مصدر سابق، ص 122.

19 المصدر السابق، ص 123.

20 روزا لوكسمبورغ، *إصلاح إجتماعي أم...*، مصدر سابق، ص 151، 158.

ذلك فإنها "تمثل أداة للصراع بين مجموعات رأسمالية في بلد معين ضد مجموعة رأسمالي بلد آخر. لقد أصبح نظام الحماية الجمركية المرافق للتوسع الكولونيالي والتناقضات المحتملة في إطار الوسط الرأسمالي بمثابة أداة للتسلح المتعاطم " ²¹. وبحسب روزا لوكسمبورغ، فقد رافق النزعة الحمائية، في كل من ألمانيا وفرنسا وروسيا، توسيع أعداد الجنود في الجيوش وفي سياق التسلح. وبدا أن الظاهرة الجديدة في السياسة الجمركية تمثلت، آنذاك، في أن الأهمية المقررة هنا لا تعود إلى الصناعة بل إلى الزراعة. ويعني ذلك أن السياسة الجمركية أصبحت اليوم حقاً وسيلة لمنح المصالح الإقطاعية شكلاً رأسمالياً والتعبير عنها بهذه الصيغة.

ومن جهة أخرى، أثارت روزا لوكسمبورغ الانتباه إلى أهمية التناقضات الأخرى في الرأسمالية. وأشارت هنا إلى أن الكولونيالية تُولد التناقض بين مصالح الدولة المستعمرة، وبين المستعمرة التي تتنامى فيها نزعات متزايدة للاستقلال الاقتصادي. وبالنسبة لوكسمبورغ، تتمثل المعضلة الكبرى للإمبريالية بضرورة البحث عن أسواق جديدة للتصريف، وكذلك عن أسواق جديدة للخامات، كما تمثل الحروب ظاهرة ملازمة للإمبريالية. وفي هذا الصدد أيدت موقف (أنجلس) من هذه القضية، والقائل بأن المجتمع البرجوازي يقف أمام خيار "أما الانتقال إلى الاشتراكية أو العودة إلى البربرية".

ولاشك أن الحرب العالمية الأولى كانت تجسد بالتأكيد "عودة إلى البربرية". لقد توقعت روزا لوكسمبورغ حدوث هذه الحرب مبكراً، أي عند نهاية القرن التاسع عشر، واستندت في بناء تحليلها إلى عاملين جديرين بالاهتمام، والذين قادا إلى تطور حتمي للأحداث نحو الكارثة. يتمثل العامل الأول بظهور ما يسمى بالدول الوطنية، أما الثاني فيتمثل في تطور الإمبريالية، وعلى وجه الخصوص تطور السياسة الكولونيالية والعسكرة التي تشترط تحقيق أهداف تلك السياسة. كانت البرجوازية مهتمة بالحرب لأنها الوسيلة الوحيدة التي تريح فيها، سواء على المستوى الاقتصادي (عقود خارجية جديدة كبيرة، توسيع أسواق الخامات وأسواق التصريف)، أم على المستوى الاجتماعي. كما وتسمح الحرب كذلك، وبشكل فعال، في تلطيف التوترات الاجتماعية. لهذا كانت روزا لوكسمبورغ على قناعة راسخة بأن السلام العالمي لا يمكن ضمانه لا عن طريق الاتفاقات حول "نزع السلاح" أو من خلال "عصبة الأمم"، بل أكدت في أكثر من مناسبة على أن الضمان الوحيد لذلك السلام هو النشاط الفعال للبروليتاريا وحلفائها ضد الحرب، في كلا الجبهتين المتصارعتين. ورغم مرور أكثر من قرن، ما زال هذا الاستنتاج يتمتع براهنيته، حتى في الظروف المعاصرة.

المبحث الثالث:

"مقدمة للاقتصاد السياسي"

وإنشاق

"تراكم رأس المال"

لا بد من التأكيد، في البداية، على أن كلا العاملين يمثلان إعلان إقتصاديان صرفان، والذي يهمننا في هذا المبحث هو عملها الأول "مقدمة للاقتصاد السياسي". كانت المحاضرات التي قدمتها روزا لوكسمبورغ في المدرسة الحزبية لـ SPD خلال عدة سنوات بمثابة أصل كتابها "مقدمة للاقتصاد السياسي". وكان هدف تلك المحاضرات تعريف المشاركين في الدورات الحزبية بالفكر الاقتصادي الماركسي، وتبيان مدى تفوقه على الفكر البرجوازي، وبالأخص الفكر البرجوازي الألماني حينذاك. وقد

²¹ روزا لوكسمبورغ، رسالة مفتوحة إلى جين يواريس، كتابات مختارة، المجلد الأول، ص 110 (باللغة البولندية).

تناولت روزا لوكسمبورغ العديد من القضايا بشكل غير تقليدي، في حين طوّرت بعض الموضوعات الماركسية. وبمقابل ذلك لم تستطع إجراء تحليل أشمل للظواهر الإقتصادية الجديدة، ذلك لأنها كرست " تراكم رأس المال " لإجراء تحليل نظري لهذه الظواهر.

المحاضرات في المدرسة الحزبية SPD

و

" مقدمة للإقتصاد السياسي "

عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، خاضت روزا لوكسمبورغ، إضافة الى ماركسيين آخرين، كفاحا فكريا ليس فقط ضد " التحريفية " ولكن كذلك ضد تجليات الممارسات الواسعة لـ " الإنتهازية " في صفوف الحركة العمالية الأوروبية الغربية التي كانت سائدة آنذاك²². فعلى سبيل المثال وعندما انظم الإشتراكي ميليراند Millerand الى حكومة Waldeck-Rousseau الرجعية، حضى بالدعم ليس فقط من القائد الإشتراكي الفرنسي Jaures، بل وكذلك من كل "الإصلاحيين " في الأممية الثانية. وفي النقاش الواسع حول الوزارية " Ministerializm " دافعت روزا لوكسمبورغ عن الفكرة القائلة بأن الإشتراكيين لا ينبغي أن يشاركوا في الحكومات البرجوازية. وفي المناقشة الكبيرة حول الإضراب الجماهيري، والتي تطورت بالإرتباط والإضراب الشامل في بلجيكا عام 1902، خاضت لوكسمبورغ سجالاتاً ساخناً مع السياسي البلجيكي Vanderwilde، رافضة مطلبه القائل بأنه ينبغي على الطبقة العاملة أن تخوض كفاحها في إطار النظام السائد، وأن تتخلى، عموماً، عن طريق العنف، معتبرة أن أشكال الكفاح غير البرلمانية (خارج البرلمان) مهمة جداً بل وضرورية، وأشارت الى ضرورة إستخدامها من طرف البروليتاريا.

وفي نفس الوقت دشّن الألمان " كفاحهم " من أجل " إيجاد مكان تحت الشمس يليق بقوتهم ". فقد باشرت الأوساط المالية نشاطها في الشرق الأقصى، هادفة بذلك السيطرة على آسيا الصغرى وما بين النهرين. ولكي يمكن للمرء أن يتصور - على صعيد واسع - إشكالية " السياسة العالمية "، فإنه لا بد من الإشارة الى أن الحكومة الألمانية أعادت بناء الجيش والبحرية بشكل لافت للنظر. ووضع هذا الأمر الحركة العمالية الألمانية والعالمية أمام قضايا جديدة. ولم يكتف " الجناح الإنتهازي " بإتخاذ خطوات نظرية فقط بهدف إخضاع البروليتاريا للمجموعات القومية - الإمبريالية البرجوازية، بل تمثلت الخطوة العملية بموافقة المجموعة البرلمانية الإشتراكية الديمقراطية على الميزانية العسكرية. غير أن النشاط المناوئين لهذه الخطوة إعتمدوا، في هذه الحالة، نهج الدفاع عن الأسس والسياسة التي - باعتقادهم - بفضلها ظلت الإشتراكية الديمقراطية قوة تطبيقية مستقلة. فقد رأت روزا لوكسمبورغ، والعديد من السياسيين الثوريين، في " السياسة العالمية " عاقبة لتحولات محددة في الإقتصاد. ولهذا رفضوا هذه الوجة، وألحوا على ضرورة تكييف طرق كفاح البروليتاريا للظروف الجديدة المتغيرة، وساهموا مساهمة فعالة في الكونغرسات والمؤتمرات الحزبية، محرضين ومروجين لهذه الوجة.

في عام 1900، وفي مدينة باريس بالتحديد، عرضت روزا لوكسمبورغ قضية " السلام بين الشعوب، والعسكرة والجيش الدائم "، وأكدت، هناك، على تزايد الإحتمال بإنهيار النظام الرأسمالي، والذي سيحدث ليس بنتيجة الأزمة الإقتصادية، بل بنتيجة الأزمة السياسية التي تستحثها " السياسة العالمية ". وفي عام 1907 (في مدينة شتوغارت) أدخلت روزا لوكسمبورغ، سوياً مع لينين، تغييرات على

²² لمزيد من التفاصيل قارن على سبيل المثال : يان جيفولسكي، النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ، مصدر سابق؛ كذلك ز.كلوزا- فولوشيفج، نظرية تطور الرأسمالية في مناقشات الإشتراكية الديمقراطية الألمانية 1891 - 1914. مصدر سابق.

التوصية المقدمة من طرف بيبل **A.Bebel** حول قضية الحرب، مطالبة بتوظيف الأزمة الاقتصادية والسياسية، الناجمة عن حرب محتملة، لتسريع انهيار الرأسمالية.

ولأنها بقيت طيلة الوقت عضواً في **SDKPiL**، فقد شاركت روزا لوكسمبورغ في الحياة السياسية المعقدة والمثيرة للحركة العمالية الروسية. وقد قَرَّبها موقفها الطبقي - الثوري الواضح هذا من الجناح اليساري لهذه الحركة. ولكن من جهة ثانية، وبسبب **إختلاف** التجارب والفروقات النظرية - السياسية، يصدد العديد من القضايا، نشبت خلافات ونزاعات مع قادة هذا الجناح، وخصوصاً مع **لينين**. وفي بداية القرن العشرين **إختلفت** روزا لوكسمبورغ مع لينين أساساً **حول القضية البولندية** وكذلك في **القضايا التنظيمية** و**حول تكتيك وإستراتيج البلاشفة**.

من المفيد **التأكيد**، هنا، على أن **الحلول اللينينية** للقضايا المطروحة كانت **تصاغ طبقاً** لمتطلبات الثورة، والتي بدت أكثر احتمالاً في روسيا آنذاك. وكما كان شائعاً في حينه، فإنه وبنسبة **التخلف** الهائل لهذه البلاد، ساد تصور بأن الثورة الروسية ستكون ثورة برجوازية - ديمقراطية جذرية فقط. ولم يكن الأشتراكيون الديمقراطيون لوحدهم على قناعة بأنه حتى لو استولى البلاشفة على السلطة فإنهم سيفقدونها حتماً لصالح البرجوازية الصغيرة أو البرجوازية، بل أن هذا الاعتقاد كان موجوداً حتى في أوساط البعض من البلاشفة. غير أن هؤلاء وقادتهم كانوا قد **استعدوا** لإنتزاع السلطة وإعطاء الثورة مداها الأعظم، وهو ما حدث بالفعل.

وعند **إندلاع** الثورة الروسية الأولى، في عام **1905**، **استقبلتها** روزا لوكسمبورغ بسعادة غامرة، وبصفتها عضو في **SDKPiL** قدمت الى **وارشو** في كانون الأول من هذا العام للمشاركة في الأحداث بشكل مباشر.

في مارس **1906** **إعتقلت** روزا، وبعد إطلاق سراحها **سافرت** الى **فلندا**، وهناك كتبت عملها الموسوم **: الإضراب الجماهيري، الحزب والنقابات العمالية**. وفي هذا العمل قامت **بتحليل** مجرى أحداث الثورة، **وإستخلصت** الإستنتاجات المطلوبة. وكان الأمر **يتعلق**، على وجه الخصوص، بدور الحركة الجماهيرية العفوية ودور الحزب في الثورة، و**اعطت** في هذا العمل دوراً خاصاً للإضراب الجماهيري. وفي ضوء التجارب الروسية **إعتبرت** روزا لوكسمبورغ **الإضراب الجماهيري وسيلة الكفاح المناسبة** التي بحث عنها الثوريون الأوروبيون الغربيون منذ وقت طويل، **واستنتجت** بأن الإضراب هذا يناسب، بقوته، الظروف الجديدة - القوة المتزايدة لرأس المال - وأنه **قادر** على أن **يؤمن** للطبقة العاملة نجاحات راهنة، **ويعدها**، في الوقت نفسه، للمواجهة النهائية الحاسمة. ولكن عند عودتها الى ألمانيا **جُوبهت** روزا لوكسمبورغ **بوجهات** نظر مختلفة، فقد **سادت** في أوساط الحزب والنقابات **قناعة أخرى** قوامها أن الأحداث في روسيا تمثل قضية داخلية روسية صرفة، وأن التجارب الثورية الروسية ليس لها ذات الأهمية بالنسبة لاستراتيجية وتكتيك الحركة العمالية الأوروبية الغربية. ومن جهة أخرى فإن **مؤتمر الحزب**، الذي عُقد في عام **1905**، اعتبر أن الإضراب الجماهيري مقبول في حالة واحدة فقط، وذلك عند حدوث **تهديد محتمل** للقانون الانتخابي العام من طرف القوى الرجعية، في حين رفض **مؤتمر النقابات العمالية** حتى فكرة **إعتبار** الإضراب الجماهيري شكلاً من أشكال النضال. ففي هذا المؤتمر الذي عقد في **كولونيا** في أيار 1905 جرت نقاشات **صاخبة** تمثلت، ببساطة، بإختلاط حابل الإضراب الجماهيري السياسي، بنابل الإضراب العام الفوضوي، واعتبر **الإثنان** معا - ومن دون أي تمييز - بمثابة " انشودة توضع حول رقبة الطبقة العاملة ".

وفي كلا المؤتمرين المشار اليهما أعلاه، **دافعت** روزا لوكسمبورغ عن خط الإضراب السياسي، **وطالبت** بضرورة **قراءة صحيحة** للوضع الذي دشنته الثورة الروسية في عام **1905**. وفي عبارات بالغة الدلالة **أكدت** قائلة : **" إذا أنصتنا الى الخطابات التي سبق أن تناولت الأمر بالنقاش (...)**، سيتوجب علينا، في الحقيقة، أن **نمسك** رأسنا بين أيدينا ونسأل : **هل ترانا نعيش، حقاً، في السنة التي تعرف فيها الثورة**

الروسية التآلق والظفر ؟ (...). إنكم تقرؤون يومياً في الصحف أنباء الثورة (.....) ولكن يبدو أن لا عيون لكم ترون بها، ولا أذان بها تسمعون (.....) إن أماننا الثورة الروسية، وسوف نكون أشبه بالحمير إن نحن لم نتعلم منها شيئاً " 23.

وبعد عدة أسابيع من هذا المؤتمر عادت روزا لوكسمبورغ من جديد للحديث عن الإضراب السياسي قائلة : " منذ زمن ليس بالبعيد، كان ينظر الى هذه الوسيلة (تقصد الإضراب السياسي - ص.ي) باعتبارها أمراً غريباً على الصراع الطبقي البروليتاري والإشتراكي، شيئاً فارغاً من أي محتوى، ومن الخواء مناقشته. واليوم، نحس.... معاً، بأن الإضراب العام ليس محتوى فارغاً، بل قطعة حية من المعركة. فمن الذي أدى الى هذا الانقلاب المفاجئ؟ إنه الثورة الروسية " 24.

لقد رأت روزا لوكسمبورغ في الموقف الذي يرفض الإضراب السياسي الجماهيري خطراً ينزع سلاح الطبقة العاملة، ويجبرها ، في الظروف الجديدة، على الإستسلام للبرجوازية الإمبريالية، ودشنت على الفور سجلاً حاداً حول هذه القضايا. ففي العديد من تدخلاتها، بيّنت أن وضع البروليتاريا الروسية لا يبتعد كثيراً عن وضع العمال الألمان، وأن الأهداف الاقتصادية للثورة الروسية تتمتع براهنية في ألمانيا كذلك، وأن هذا يتعلق بطرائق الكفاح الروسية. غير أن محاولات روزا لوكسمبورغ لإقناع الحركة العمالية الألمانية بأهمية التجربة الروسية لقيت مقاومة شديدة، وبالأخص من طرف الأرسقراطية النقابية، وكذلك من طرف النشطاء الحزبيين المصابين بعدوى البرلمانية. ورغم الهزيمة التي لحقت بالإنتهازية في الحركة العمالية الألمانية إلا أنها إنتصرت في النهاية. فعلى سبيل المثال انتهى مؤتمر SPD المنعقد في "مانهايم" في عام 1906، والذي كان يستهدف حل قضية الإضراب الجماهيري، باستسلام الحزب للنقابات العمالية. وتجلّى ذلك بشكل صارخ في حقيقة أن القرار بصدد الإضراب الجماهيري صار يعتمد على موافقة القادة النقابيين الإنتهازين، والذي كان مرفوضاً من طرفهم بالأصل. ومن مفارقات هذا المؤتمر قيام الزعيم النقابي آنذاك (ليجين) بإلقاء خطاب عاصف دام لأكثر ساعة، هاجم فيه قرار المؤتمر العام السابق. وعلى الفور ردت عليه روزا لوكسمبورغ قائلة : " يبدو أنه ليس لديك أية فكرة عن واقع أن الحركة النقابية الروسية القوية، ما هي سوى إبنة الثورة ولدت أبان النضال " 25.

وبمجرد هزيمة الثورة الروسية في عام 1905 حتى عاد المناوؤن لشعار الإضراب السياسي الكبير الى الحديث مجدداً، مؤكدين " صواب " أطروحاتهم السابقة. وبنتيجة توازن القوى الذي كان سائداً داخل النقابات وداخل الإشتراكية الديمقراطية الألمانية آنذاك، أسدل الستار عن هذه القضية وأحيل سلاح الإضراب السياسي الجماهيري الى " متحف التاريخ ". وكان لكارل كاوتسكي دور كبير في هذه العملية.

إن هذه الملاحظات تبين أن الكفاح الذي خاضته روزا لوكسمبورغ من أجل خلق ظروف ملائمة لطريقة نشاط البروليتاريا كان ذا طبيعة سياسية، ولم تُعد للإشكالية الاقتصادية إلا في عام 1907 حيث قامت عندها بإلقاء محاضرات في الاقتصاد السياسي والتاريخ الاقتصادي في المدرسة الحزبية المركزية لـ SPD 26. وقد أرادت روزا إصدار محاضراتها في كتيبات ثم إعدادها في كتاب بلغات مختلفة، غير أن ذلك لم يتم أثناء حياتها. فالحظ السيئ الذي واجهه مصير " مقدمة في الاقتصاد السياسي " يمكن قرائته في العديد من رسائل روزا لوكسمبورغ الى البعض من أصدقائها 27. فقد تم العثور على بعض أجزاء هذا العمل في الشقة التي إعتُلت فيها في عام 1919.

23 النص مأخوذ عن : دانييل غرين، روزا لوكسمبورغ، ترجمة إبراهيم العريس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1975، (57).

24 المصدر السابق ونفس الصفحة.

25 نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

26 للمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن : A.Laschitz , G.Radczun : Rosa Luxemburg. Ihr Wirken in der deutschen Arbeiterbewegung, Berlin 1971, s 201-211

27 روزا لوكسمبورغ، رسائل الى ليون تيشكو، المجلدين 1-2، وارشو 1968 (باللغة البولندية).

ويبدو أن فكرة نشر محاضراتها تلك قد و انتهت عام 1908، غير أنها أجلت هذا العمل الى ما بعد إنتهائها من وضع عملها الأهم "تراكم رأس المال". ففي خلال سنتي 1910 – 1911 صاغت روزا لوكسمبورغ المخطط الأولي لمحاضراتها، بهذا الصدد، كما يلي :

1. ما هو الاقتصاد السياسي ؟
2. عناصر لتاريخ اقتصادي
 - الطابع الإجتماعي للعمل.
 - ملكية وسائل الإنتاج وتغيرات شكل الملكية باعتبارها القضية الأهم للتاريخ الإقتصادي.
 - المشاعية البدائية.
3. عناصر لتاريخ إقتصادي
 - تقسيم العمل و التخطيط " المحدود " عند الشعوب البدائية.
 - دول الأنكا.
 - التقسيمات الإجتماعية في الهند.
 - الجزائر.
 - روسيا ومصاثرها.
 - شعوب الشرق الأوسط.
 - الإنتقال الى العبودية. كريتا، أثينا. العلاقات الإقتصادية في روما القديمة. إنهيار العبودية.
 - إنبثاق العلاقات الإقطاعية. الإستغلال الإقطاعي (والرأسمالي). الحروب الفلاحية وطبيعتها.
 - مدينة القرون الوسطى.
 - نشوء المدن في القرون الوسطى. النزاعات الطبقيّة في المدن.
 - الإنسانية وعصر النهضة.
 - المدن الإيطالية وإنهيارها
4. إنتاج الذهب
 - الإنتقال الى العملة الذهبية في إنكلترا، المانيا وبلدان أخرى.
 - إنتاج الذهب والفضة في العصور القديمة والعصر الوسيط.
 - إكتشاف الفضة والذهب في العصر الحديث.
 - إنتاج الفضة والذهب في الفترة 1493 – 1905 وكذلك حاليا في عدة بلدان.
5. الجزء الثاني من "الرأسمال"
 - دوران رأس المال
 - فترة الدوران.
 - رأس المال الثابت ورأس المال المتغير.
 - معدل فائض القيمة السنوي.
 - دوران رأس المال الإجتماعي الإجمالي.
 - شروط تطابق الإنتاج والإستهلاك، أي شروط وجود الرأسمال الإجتماعي.
 - مخطط إعادة الإنتاج المجتمع الرأسمالي.
 - تحقيق هذا " المخطط " عن طريق الكوارث فقط.
 - نزعات الإنتاج الرأسمالي وكذلك القدرة الإستهلاكية للمجتمع كمصدر للأزمات.
6. الأزمات.
 - تاريخ الأزمات.

- الأزمات خلال الفترة 1815 – 1895
- عدم وجود أزمة في ألمانيا خلال الفترة 1873 – 1898 يمثل الأساس لـ " نظرية التكيف " البرنشتاينية (نسبة الى برنشتاين ص.ي) .
- التطور الكبير بعد عام 1895 وأسبابه الفعلية
- الأزمات في 1900 و 1907.
- تاريخ نظريات الأزمات.
- أوين، مالثوس، سيسموني : ثلاثة تفسيرات لأسباب الأزمات.
- حل القضية من طرف ماركس.
- التفسيرات البرجوازية المعاصرة للأزمات.
- نظرية توجان - بارانوفسكي وطبعتها السومبارتية (نسبة الى سومبارت – ص.ي).

7. الجزء الثالث من "الرأسمال"

- معلومات عامة حول الجزء الثالث.
- الربح
- الربح المتوسط وسعر الإنتاج
- هبوط معدل الربح وطرق إيقافه.
- توزيع فائض القيمة
- الربح التجاري ووظيفته.
- التكاليف التجارية.
- الربح التجاري ومعدله.
- شغيلة التجارة وأرباحهم.
- الرأسمال الإقراضي ووظيفته.
- جوهر الفائدة.
- الفائدة وربح الصناعي.
- مستوى معدل الفائدة.
- التاريخ ما قبل الرأسمالي للفائدة.
- الربح العقاري (الأرض) بحسب التصورات البرجوازية والماركسية.
- التفسيرات البرجوازية والماركسية للربح المطلق.
- الربح التفاضلي.

8. تاريخ الإقتصاد السياسي

- المدرسة الماركنتلية (التجارية).
- الفيزيوقراط كرد فعل على الماركنتلية.
- الإقتصاد الكلاسيكي (سميث، مالثوس، ريكاردو وتلامذتهم : ساي وسيسموني).
- المدرسة الرومانتيكية (ليست).
- المدرسة التاريخية.
- إشتراكية المقاعد.
- المدرسة الذاتية النمساوية.

9. النظام البنكي

- نظام الأسهم
- إنبثاق البنوك المساهمة في إيطاليا، هولندا وبلدان أخرى.
- إنبثاق وتطور نظام المساهمة في إنكلترا، فرنسا وألمانيا.
- الشركات المساهمة راهنا.

- محاولات الضبط الحقوقي.
- حل الشركة المساهمة.
- البنوك
 - الوظائف الأولية للبنوك.
 - مؤسسات النظام الإئتماني.
 - أنواع البنوك.
 - بنوك الإصدار، إدارتها ومبادئ نشاطها.
 - بنوك الإصدار والدولة، حصة الدولة في الأرباح.
 - أهم البنوك التجارية في ألمانيا.

10. الكارتل وحركة التروستات

- أسباب الإحتكار.
- وضع الإحتكار في ألمانيا وبلدان أخرى.
- أشكال الإحتكار.
- قانون منع الإحتكار والتروستات في الولايات المتحدة.
- تأثير الإحتكارات على تذبذبات الأسعار والأزمات.
- الصراع داخل الأحتكارات.
- الأسعار الإحتكارية وإتجاهاتها.
- إنعدام الإحتكار التام.
- الإحتكارات تعاضم الفوضى.
- إتجاه تدويل الإحتكار
- مقاربات مختلفة بنتيجة المصالح الرأسمالية المتعارضة.
- الكارتلات ووضع العمال.

غير أن **إندلاع** الحرب العالمية الأولى دفع روزا لوكسمبورغ مرة ثانية الى التأجيل، حيث تابعت العمل بعد ذلك أثناء إقامتها في السجن خلال الفترة 1016 – 1917. ولكن يبدو أن العمل لم يكتمل أبداً، إذ يقول **(بول فروليك)**، في كتابه عن روزا لوكسمبرغ أن ثمة رسالة بعثتها الى الناشر **(ديتز)** من سجنها في برلين في 28 تموز 1916، تخبره فيها أن المشروع الأصلي للكتاب، يضم الفصول التالية :

1. ماهو الإقتصاد السياسي ؟

2. العمل الإجتماعي.

3. عناصر لتاريخ إقتصادي : المجتمع الشيوعي البدائي.

4. النظام الإقتصادي الإقطاعي.

5. المدينة القروسطية، والمنغلقات الحرفية.

6. الإنتاج السلعي.

7. العمل المأجور.

8. الربح الرأسمالي.

9. الأزمة.

10. إتجاهات التطور الرأسمالي.

ويلاحظ هنا الفرق بين المخطط الموضوع في عامي 1910 و 1911 وبين المخطط الأخير الذي وضعته روزا لوكسمبرغ أثناء سجنها. في صيف 1916، كان الفصلان الأولان جاهزين للطبع، أما الفصول الباقية فكانت عبارة عن مسودات. ومع هذا لا يعثر المرء من بين ما تركته روزا إلا على الفصول : الأول والثالث والسادس والسابع والعاشر. وعلى هذا ضم الشكل النهائي للكتاب ستة فصول

فقط. ومن المفيد التذكير بأن روزا لوكسمبورغ لا تكتفي، في عملها هذا، بتلخيص وتبسيط نظرية ماركس العلمية، بل تنصرف الى تطبيق المنهج الماركسي بهدف تحديد ماهية وغرض الاقتصاد السياسي، قبل أن تصل الى دراسة اتجاهات تطور المجتمع الحديث²⁸.

ابتدأت روزا لوكسمبورغ كتابها: "مقدمة للاقتصاد السياسي" بطرح السؤال التقليدي: ما هو الاقتصاد السياسي؟ وفي مسعاها للإجابة على هذا السؤال، كرست المؤلفة ما يقارب ربع هذا العمل، باذلة جهودا كبيرة لعرض العديد من القضايا النظرية المهمة، في محاولة منها لكشف الفروقات الجوهرية بين تناول الماركسي والتناول البرجوازي لهذا العلم. وفي عرض ممتع قامت روزا بمناقشة طائفة من التعاريف التي تنتمي الى مدارس مختلفة، ومن بينها المدرسة التاريخية التي رأى منظروها الكبار في الاقتصاد السياسي بأنه "علم الاقتصاد القومي العلم الذي يدرس الاقتصاد القومي". ويعني ذلك أن ممثلي هذه المدرسة، وغيرهم من الاقتصاديين البرجوازيين الألمان أعاروا الاهتمام الأكبر في موضوع أبحاثهم الى "الطابع القومي - الاقتصاد القومي". وبحسب هؤلاء، تكون مهمة علم الاقتصاد تفسير الخصائص القومية للعمليات الاقتصادية، والبحث عن السنن المشتركة للاقتصادات والثقافات القومية. وهنا لا بد من الإشارة بأن هؤلاء اخذوا بنظر الاعتبار تطور التبادل الدولي ولكنهم حصروه فقط في استجلاب الفائض، والتأكيد على التبادل بين البلدان الصناعية والبلدان الزراعية - الخامية.

وفي سجالتها مع هذه الافكار والطروحات، انطلقت لوكسمبورغ من سؤال قوامه: "هل يوجد حقا ما يسمى بالاقتصاد القومي؟ هل تقييم البلدان المختلفة اقتصادات منفصلة عن بعضها البعض أم أن لها صلات مترابطة"²⁹. وفيما يتعلق بطابع الروابط الاقتصادية، رفضت روزا لوكسمبورغ الاطروحة السابقة التي اختزلت تطور التبادل الدولي في استجلاب الفوائض، وأكدت على أن هناك الكثير من البلدان تحصل على قيم أكبر مما تصدر الى الخارج³⁰. إن تصدير رأس المال لا يهدف فقط الحصول على السلع التي لا يستطيع البلد المعني إنتاجها بل إنه يؤدي وظائف أهم من ذلك بكثير حيث "الاقتصادات القومية الأوروبية تمتد ايديها الطولى الى مختلف شعوب وبلدان العالم بهدف خلقها بشبكة قوية من الاستغلال الرأسمالي"³¹. في هذا الاطار عرضت روزا لوكسمبورغ وبشكل واضح السياق الخارجي للامبريالية، وتشكل الاقتصاد الرأسمالي العالمي. وبالنسبة لها لم يكن "الاقتصاد القومي" هو موضوع الاقتصاد السياسي بل الاقتصاد العالمي، الذي يتعين بحث اتجاهاته وروابطه المعقدة. ولفهم مغزى هذه التعريف لا بد من اعارة الانتباه الى أن النشاط النظري لروزا لوكسمبورغ كان شديد الارتباط بممارسة النضال الطبقي الثوري. في مثل هذه الظروف احتلت التناقضات الخارجية مكان الصدارة، فالصراع من اجل اقتسام المناطق الكولونيالية، ومن اجل ضمان شروط افضل لرأس المال المصدر، والاستحواذ على مناطق النفوذ، كانت المعالم المميزة لتلك الحقبة.

في الفصلين الثاني والثالث من هذا العمل تستعرض روزا لوكسمبورغ تاريخ تطور المشاعة البدائية، وتستند في صياغة فهمها لهذه القضايا الى مادة تاريخية ثرية. وعلى اساس تحليل الحقائق التاريخية استخلصت مؤلفة "مقدمة للاقتصاد السياسي"، وسنشير له لاحقا "مقدمة"، استنتاجا قوامه أن محاولة تصنيف المجتمعات استناداً الى معيار الوسط الجغرافي تمثل "مادية مبسطة ومبتذلة علاقات الانتاج الاجتماعية هي التي تقرر شكل الانتاج المهيمن في شعب معين"³². ولا تكتفي بذلك بل تضيف قائلة "الانتاج هو اللحظة الاولى والاهم للحياة الاقتصادية للمجتمع.... أما في عملية

²⁸ قارن المقدمة التي كتبها ابراهيم العريس لكتاب روزا لوكسمبورغ، ما هو الاقتصاد السياسي؟ دار ابن خلدون، بيروت 1975، ص 5 - 6.

²⁹ روزا لوكسمبورغ، مقدمة للاقتصاد السياسي. وارشو 1959، ص 20 (باللغة البولندية).

³⁰ المصدر السابق، ص 40.

³¹ المصدر السابق، ص 46.

³² المصدر السابق، ص 120-121.

الإنتاج فالعامل المقرر هو العلاقة الناشئة بين الشغيلة ووسائل الإنتاج....نحن هنا أمام العلاقة الاجتماعية بين قوة العمل البشري ووسائل الإنتاج " 33.

أما في الفصلين الرابع والخامس فتعرض روزا لوكسمبورغ بوضوح نظرية الإنتاج السلعي والاستغلال الرأسمالي الماركسية.

يسمح العرض السابق بصياغة أبرز عناصر الفهم اللوكسمبورغي لإشكاليات الإقتصاد السياسي وكيف فهمته روزا لوكسمبورغ آنذاك:

- في ظروف هيمنة الإقتصاد الطبيعي لم تكن هناك أية قوانين إقتصادية خفية، إذ أن كافة الروابط والعلاقات السائدة هنا، والأسباب والنتائج المرتبطة بها والنتيجة عنها، العمل ونتائجه، كانت على درجة بالغة من الوضوح، بل عارية في وضوحها. ولهذا فإن الأبحاث العلمية المجراة هنا بإمكانها أن تساعد في تحديد وكشف الأرضية/الخلفية التاريخية وسيرورة تطور تلك العلاقات. غير أن الأمر مختلف تماما في ظروف الإنتاج السلعي الرأسمالي، إذ يختفي هنا الطابع المخطط للنشاطات المميزة للعلاقات ما قبل الرأسمالية، كما تمثل الفوضى الصيغة المميزة لسلطة رأس المال. انبثق الإقتصاد السياسي هنا، إذن، بإعتباره واحدا من أهم أسلحة البرجوازية في صراعها مع الإقطاعية. وبفضل ذلك فإن هذه الطبقة كانت واعية لدورها التحويلي. غير أن الفكر الإقتصادي البرجوازي لم يتمكن من تأدية دوره حتى النهاية، ذلك الدور القائم على اكتشاف ليس فقط قوانين إنبثاق وتطور الرأسمالية، ولكن كذلك إنهيائها، إذ أن هناك تعارض واضح بين العلمي والإيديولوجي. ولهذا فقد قام ماركس بهذه المهمة، إذ إكتشف تلك القوانين الإقتصادية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي، والتي تقود، في نهاية المطاف، الى انهيار هذا النظام، حيث " أن إتساع الفوضى يهدد أسس المجتمع ويتسبب كذلك بالعديد من الكوارث الإقتصادية والسياسية " 34.
- وطالما تخلق الرأسمالية الشروط الأساسية لظهور المجتمع البشري وتؤمن التقدم الإقتصادي في فترة تاريخية محددة، فإنها يمكن أن تظهر هنا كضرورة موضوعية. ولكنها مثلها مثل أي نظام آخر لا بد أن تتطور، وهذا التطور يؤدي الى إنهيائها. وعلى عكس التشكيلات الأخرى، تمتاز التشكيلة الرأسمالية بتطلعها للانتشار الآلي على صعيد عموم الكرة الأرضية، وابتلاع التشكيلات السابقة له. ثمة مفارقة جديرة بالانتباه وقوامها أنه وداخل كل بلد صناعي يزيع الإنتاج الرأسمالي، وبشكل دائم، الإنتاج السلعي غير الرأسمالي. ولكن بمقابل ذلك يسجل التطور الفعلي للرأسمالية بأن هذا النمط قام - وعبر التجارة الخارجية والغزوات الكولونيالية وغيرها - بضم مختلف البلدان " المتخلفة " الى دائرة الإقتصاد الرأسمالي العالمي. وقد رافق هذا التوسع المحموم لسيطرة رأس المال، وكذلك إنبثاق السوق العالمية والإقتصاد الدولي، تدمير شعوب بأكملها، وبلترة أخرى وتهميشها. ومن جهة ثانية ترافق تطور الإقتصاد العالمي ظواهر أخرى ذات أهمية كبيرة لتطور الإقتصاد الرأسمالي ذاته. ففي البلدان المستعمرة وبعد إجتذاب السكان المحليين الى دائرة التبادل السلعي أولا، والإستيلاء على وسائل إنتاجهم ثانيا، تحل المرحلة الثالثة والمتمثلة بظهور الإنتاج الرأسمالي في هذه البلدان 35.
- لا يمكن للإنتاج الرأسمالي أن يستمر بدون أن يتوسع دائما وباستمرار وبدون إنقطاع، وقدرة هذا الإنتاج وبهذا الإتجاه لا حدود لها. ولكن يتعين على رأس المال تحقيق الربح، على الأقل ربحا متوسطا. وفي مسعاها لتحقيق الربح، تحد الرأسمالية من الإستهلاك الإجتماعي، وتخلق لنفسها، في الوقت ذاته، وفي كل خطوة، قدرات سوقية محددة. تتولى

33 المصدر السابق، ص 148، 149.

34 روزا لوكسمبورغ، مقدمة للإقتصاد السياسي، مصدر سابق، ص 53.

35 المصدر السابق، ص 308 - 314.

الأزمات الدورية والمتعاقبة، باعتبارها **عاصفة منظفة**، كما قال ماركس، بحل هذا التناقض. وكلما قامت البلدان الرأسمالية بتطوير صناعتها المحلية، كلما **تنامت** الحاجة والإمكانية لتوسيع الإنتاج التي تصطدم بمحدودية الأسواق نسبياً. وفي كل خطوة من تطورها تقترب الرأسمالية من تلك اللحظة التي سيكون من الصعب عليها التطور والتوسع، وتحل لحظة التباطؤ محل ذلك. وإستناداً الى ذلك **تستخلص** روزا لوكسمبورغ **إستنتاجاً** محدداً يمكن عرضه باختصار كما يلي: **إن إستنفاد السوق العالمية يمثل محددًا للإنتاج الرأسمالي والربح المرتبط به**. وبهذا المعنى فإن الحفاظ على الرأسمالية يبدو غير ممكن، وعندها تحل لحظة إنهيارها.

● لكن الرأسمالية في واقع الحال لن تقف مكتوفة الأيدي، بل تسعى جاهدة لإزاحة العوائق والمحددات المشار إليها أعلاه. **يزيح** الإحتكار المنافسة الحرة الى الخلف ليحل محلها، بينما تقوم الكارتلات والتروستات بإيقاف هبوط معدل الربح ومنعه من الإنخفاض، بالحد من الإنتاج. في حين يؤدي **التسلح** المتواصل، والإستعمار السياسي، وبناء السكك الحديدية في "البلدان المتخلفة"، الى تحفيز مصطنع للإستهلاك. غير أن هذه الإجراءات لا تستطيع الموائمة بين الإنتاج والإستهلاك، ولا الى منع الأزمات، التي يؤدي تطور السوق العالمية الى تعمقها وإتخاذها مديّات جديدة. ويقود كل هذا الى **إحتدام** التناقضات بين العمل ورأس المال من جهة، وبين البلدان الرأسمالية ذاتها من جهة أخرى. هكذا، إذن، يؤدي التطور الفعلي للنظام الرأسمالي والقوانين الناظمة له الى الثورة السياسية، بحسب روزا لوكسمبورغ. وهي بهذا المعنى **تستنتج** بأن **الرأسمالية تُعد الشروط المادية والإجتماعية للإقتصاد الإشتراكي**³⁶.

خلال فترة طويلة، عاش ونشط في الحركة العمالية عدد كبير من تلامذة روزا لوكسمبورغ. وقد صار العديد منهم مناضلين حزينين بارزين. كان من الممكن، على ما يبدو، أن تتم محاولة **الكشف** عن مذكراتها، وعلى أساس ذلك **تعداد صياغة** الأجزاء الناقصة من " **مقدمة الإقتصاد السياسي** "، غير أنه ولأسباب عديدة لم يتم إنجاز ذلك³⁷.

أما في الإتحاد السوفياتي السابق، وحتى عام 1931، نُشر ولعدة مرات كتاب " **مقدمة في الإقتصاد السياسي** ". وقد ورد ذكر هذا الكتاب ولمرات عديدة أثناء **النقاش** حول كتاب " **تراكم رأس المال** ". وفي المرحلة النهائية لهذا النقاش، في بداية الثلاثينات، إضيف كتاب " **مقدمة ...** " الى ماسمي آنذاك بـ " **النسق الخاطئ للوكسمبورغية** "، وتعرض للإنتقاد من طرف باحثين عديدين. ومن جديد **حضي** النقد الذي قام به (روزنبري D.Rozenberg) بأهمية كبيرة، فقد كانت **الإنتقادات** التي وجهها هذا الكاتب للعمل المذكور عديدة، ومن بينها ما يلي³⁸:

1. **لقد عرضت** روزا لوكسمبورغ الرأسمالية بصيغة أحادية الجانب، حيث فوضى الإنتاج معلمها المميز.
2. في محاضراتها حول الإقتصاد السياسي لم تخرج روزا لوكسمبورغ عن إطار التقسيم الإجتماعي للعمل، كما لم تحلل التناقضات المتجسدة في السلعة، ولا التناقضات الكامنة ورائها بين العمل الخاص والعمل الإجتماعي. وبحسب روزا لوكسمبورغ، فإن العمل المنفق في الإنتاج هو عمل خاص، وإن التبادل يعطي للعمل المذكور طابعه الإجتماعي، كما أن التبادل المذكور ينسج رابطة أو علاقة بين المنتجين. وهنا تعرض روزا لوكسمبورغ إنبثاق التبادل كمثل إفتراضي، إذ هي لا تستخدم منهج التحليل التاريخي.
3. لا تبحث مؤلفة " **مقدمة ...** " في **إشكال القيمة**، كما أن مفهوم القيمة لا يسمح لها بصياغة موضوعية للنظرية الماركسية للنقد.

³⁶ روزا لوكسمبورغ، **مقدمة للإقتصاد السياسي**، مصدر سابق، ص 326 – 329.

³⁷ بشير جيفولسكي، **النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ**، مصدر سابق ص 69، الى أن السبب الأهم بإعتقاده، كان على ما يبدو، هو تغير موقف الرفاق في الحزب الشيوعي الألماني وعموم الحركة الشيوعية، من روزا لوكسمبورغ، وذلك عند منتصف العشرينات من القرن العشرين.

³⁸ 1934, nr 5 " **Problemy ekonomiki** " R. Luksemburg, " **Osnownyje etapy w rozwitii koncepcyj** " D. Rozenberg. وقد ورد عند يان جيفولسكي، **النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ**، مصدر سابق، مطبعة الدولة العلمية، وارشو 1989، باللغة البولندية.

4. عند تحليل الرأسمالية، فإنه بدلاً من دراسة تحول النقد الى رأسمال ، تبدأ روزا لوكسمبورغ مباشرة من قوة العمل. إنها لا تبحث أشكال رأس المال، إضافة الى أنها ترى فقط التبادل مع كل فوضاه.

5. إن عدم فهم خاصية الشكل يقود مؤلفة " مقدمة " الى أخطاء أساسية في قضية الأجور. فهي تطابق هنا بين الأجور وقيمة قوة العمل، والمستوى الذي يحددها، والذي هو - بحسب روزا لوكسمبورغ - علاقة القوى الطبقة.

6. في مفهوم تطور و إنهيار الرأسمالية، المثبت في المقطع الأخير في " مقدمة ... " تختلف المؤلفة مع ماركس. حيث تصوغ هنا الموضوع الأساسية لعملها الأهم " تراكم رأس المال "، مشيرة الى عدم إمكانية تحقيق فائض القيمة بدون " طرف ثالث ". كما أنها لا تعثر على تعليل (تبرير) لإنهيار الرأسمالية في " القانون العام للتراكم " ، إذ أنها كانت تبحث عن ذلك خارج النظام.

غير أن الطبعة الروسية لهذا العمل والصادرة في عام 1960 قد عبّرت عن موقف جديد مغاير تماما للموقف السابق المشار اليه أعلاه. حيث يلاحظ هنا أن محرر هذه الطبعة، (لابتيف)، قد أشار الى الجوانب الإيجابية لعمل روزا لوكسمبورغ هذا، معتبرا أن " مقدمة ... " " إجتاز إختبار الزمن ويعد تمثالا وطيلا لأكبر منظرة للطبقة العاملة البولندية والألمانية على مر العصور " ³⁹. وطبيعي أن محرر هذه الطبعة كان أكثر اعتدالا من سابقيه، فقدم عرضا موضوعيا أشار فيه الى الجوانب الهامة في العمل وإيجابياته. ولكنه بمقابل ذلك ظل متمسكا بالمواقف السوفيتية السابقة في تقييم أطروحة روزا لوكسمبورغ بصدد موضوع الإقتصاد السياسي.

أما أول طبعة لهذا العمل باللغة البولندية فقد صدرت في وقت لاحق، وفي ظروف تاريخية مختلفة أخرى. ففي عام 1959 فقط صدرت هذه الطبعة لـ " مقدمة " مسبوقة بمقدمة للناشر تشير الى أن هذا العمل يتضمن أخطاء نظرية أساسية، من بينها طريقة تناول موضوع الإقتصاد السياسي، التي من المؤكد أن القارئ " سيلاحظها بسهولة ".

ولم يكن لهذا العمل خصومه فقط، بل كان هناك من قام بالدفاع عنه بشكل لافت للنظر، ومن بين هؤلاء تعد مساهمة يوزيف زافادسكي، البروفسور البولندي المعروف وأحد أهم المتضلعين بفكر روزا لوكسمبورغ، مهمة جداً. ويمكن عرض أبرز ملاحظات زافادسكي بصدد الإنتقادات الموجهة لكتاب روزا لوكسمبورغ: مقدمة في الإقتصاد السياسي ⁴⁰:

1. يمكن القول أن روزا لوكسمبورغ تناولت موضوع الإقتصاد السياسي بشكل غير دقيق، إذ اعتقدت بأن القوانين الإقتصادية تنشط بشكل عفوي في الإقتصاد السلعي، وخصوصا الإقتصاد السلعي الرأسمالي. غير أن هذا التناول لم يكن نتاج " المفهوم التبادلي " بل هو تعبير عن رؤية كانت منتشرة في الحركة العمالية، مرتبطة بالتصورات السائدة آنذاك عن الإقتصاد الإشتراكي.
2. أنها عرضت بشكل غير مسبوق، ولكنه معلل من الناحية العلمية، اشكالية إنبثاق التبادل في الإقتصاد السلعي. و تأكدها على أن التبادل السلعي الناشئ بين المنتجين والمنظم للإقتصاد، ليس له أية صلة بـ " مفهوم التبادل " وذلك لسببين. الأول أنها حددت سابقا أولوية الإنتاج، وثانيا تحدثت مسبقا عن الطبيعة الإجتماعية لتقسيم العمل (حيث خصصت فصلا كاملا لذلك هو الفصل الثاني من " المقدمة ").
3. لقد أكد واقع تطور الرأسمالية ذاته صواب أطروحة روزا لوكسمبورغ المتمثلة بتأكيدها على تنامي التناقضات بين حاجات الإنتاج الرأسمالي وتحقيقه، وإن الإمكانات الإستيعابية للسوق تتضاءل بشكل مستمر. ومن جهة أخرى فقد أكد التطور اللاحق للرأسمالية صواب التنبؤ الذي

³⁹ النص مأخوذ عن: الفكر الفلسفي والاجتماعي. ابحاث حول التقاليد الإشتراكية والماركسية في بولندا. عمل جماعي بإشراف أس.جامسكي. الكتاب والمعرفة، وارشو 1988(باللغة البولندية).

⁴⁰ قارن يوزيف زافادسكي، الأفكار الإقتصادية لروزا لوكسمبورغ، مصدر سابق، الفصل الرابع، ص 180 ولاحقا

صاغته روزا والقائل بأن الرأسمالية تتجه نحو الركود . أما أطروحتها القائلة بأن الرأسمالية ما زالت تمتلك إمكانات ملحوظة للتطور، ومن الصعب إعتبارها خاطئة.

4. يبدو أن روزا لوكسمبورغ كانت على صواب حين أكدت على موضوعها القائلة بأنه ستحل تلك الفترة التي سيكون فيها ثمن وجود الرأسمالية وإستمرارها مرتفعا، متمثلا بخسائر إجتماعية عظيمة، وبتبذير فاضح للموارد، وبنزاعات عالمية دموية الطابع. ولهذا يمكن القول أنه لا يوجد في (المقدمة ...) خطأ ما يسمى بـ " نظرية الإنهيار الألي " للرأسمالية، إذ أكدت روزا، ولأكثر من مرة، على أن " إنتفاضة المستغلين (بالفتح) " لوحدها يمكنها أن تضع حدا لوجود هذا النظام.

لقد سعيث، في هذا العرض المكثف، توضيح المقاربات المختلفة، أو على وجه الدقة القراءات المختلفة لعمل روزا لوكسمبورغ " مقدمة في الإقتصاد السياسي ". أقول قراءات مختلفة رغم معرفتي بأن الجميع ينطلق من مواقع ماركسية، ويستند الى ماركس في تأكيد إتفاقه أو إختلافه مع ما طرحته روزا في عملها هذا. ويبدو أنه وبرغم العديد من الملاحظات الفرعية، فإن الخلاف وتباين وجهات النظر يدور حول قضية موضوع الإقتصاد السياسي وكيف عرضته روزا في " مقدمة ... " .

لنعد الى ماركس وأنجلس وكيف تناولا موضوع الإقتصاد السياسي، لنطابق فيما بعد بين هذا وذلك الذي عرضته روزا في " مقدمة... ". كان الهدف الذي وضعه ماركس وأنجلس على عاتقهما يتمثل بنقد النمط الرأسمالي للإنتاج الإجتماعي، وتبيان محدوديته وطبيعته الإنتقالية. فقد قام ماركس بتحليل الإنتاج السلعي بإعتباره القاعدة الأساسية التي يستند اليها النظام الرأسمالي. كما قام بعد ذلك بتحليل علاقات الإنتاج والتوزيع والتبادل الرأسمالية وبحث إتجاهات تطورها. ولدى تحليله للإقتصاد السلعي الرأسمالي، إكتشف ماركس الأشكال المتميزة وميكانيزمات تحقيق السنن العامة للإنتاج الإجتماعي في الإقتصاد الرأسمالي، باعتبارها صيغا مميزة للإنتاج السلعي بشكل عام. نستطيع القول، إذن، أن ماركس لم يكن مهتماً بالأساس بالسنن العامة للإنتاج السلعي بشكل عام، بل بالأشكال المميزة لتلك السنن في ظروف الإنتاج السلعي الرأسمالي. وقد حدّد ماركس وبشكل لا يقبل الشك فوضى الإنتاج السلعي الخاص والرأسمالي، إضافة الى الخصائص المميزة لنظام الإستغلال الرأسمالي.

إنطلاقاً من هذه التحديدات المكثفة، يمكن القول أن هدف روزا لوكسمبورغ، وباقي الإقتصاديين الماركسيين، لا يختلف، في الجوهر، عن هدف ماركس وأنجلس الذي جرت الإشارة اليه سابقا. ولكن الرأسمالية شهدت خلال هذه الفترة تطورات استحدثت ضرورة دراستها وتبيان أثارها. وعندما قدم " التحريفيون " أطروحتهم بصدد إختفاء الفوضى والأزمات في الرأسمالية، قامت روزا لوكسمبورغ بمحاولة للدفاع عن النظرية الإقتصادية الماركسية بصدد هاتين النقطتين : الفوضى والأزمات في الرأسمالية. ويمكن القول، إذن، أن تناول روزا لوكسمبورغ لموضوع الإقتصاد السياسي لم يكن ناجما عن التراث الماركسي فقط على اهمية ذلك، بل كان مرتبطا بحاجة الحركة العمالية آنذاك، التي لم تتخطى، في حينه، حدود التحليل الإنتقادي للنظام الرأسمالي.